

رِحْلات جالِيڤر

كتب الفراشة - القصص العالميّة

رِحْلات جالِيڤر



تأليف : جوناثان سويفْت
ترجَمَة : هَانِي تَابِري



مَكتَبة لبْنان ناشِرُون

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل
زقاق البلاط - ص.ب: ١١-٩٢٣٢
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٥
رقم الكتاب 01 C 196818
طبع في لبنان



مقدّمة

وُلِدَ جوناثان سويفت، مُؤَلِّفُ «رِحْلات جاليڤر» (Gulliver's Travels) في دبلِن سَنَةَ ١٦٦٧. أَصْبَحَ عُضْوًا في الكَنيسَةِ البروتِسْتَنْتِيَّةِ بِإيرلندا، وكانَ صاحِبَ نَشاطٍ بارِزٍ في الحَياةِ السِّياسِيَّةِ بِإنجلترا. وقَدْ مَكَّنَتْهُ مَوْهِبَتُهُ الأَدَبِيَّةُ مِنْ كِتابَةِ نَشَراتٍ ومَقالاتٍ ساخِرَةٍ تَعْرِضُ آراءَهُ بِوُضوحٍ وتَنْتَقِدُ مَواقِفَ مُعارِضيهِ وخُصومِهِ، فَأَصْبَحَ أَحَدَ أَبْرَزِ كُتّابِ عَصْرِهِ. سَنَةَ ١٧٢١ بَدَأَ سويفت تَأْليفَ كِتابِ «رِحْلات جاليڤر» الَّذي اسْتَغْرَقَ أَرْبَعَ سَنَواتٍ حَتّى اكْتَمَلَ. ولَدى نَشْرِهِ، سَنَةَ ١٧٢٦، عَرَفَ شُهْرَةً فائِقَةً، حَتّى إِنَّ جَميعَ نُسَخِ الطَّبْعَةِ الأُولى بِيعَتْ خِلالَ أُسْبوعٍ واحِدٍ.

يَسْتَهوي الكِتابُ الأَوْلادَ، عَلى مَرِّ العُصورِ، فَقِصَّةُ مُغامَراتِ جاليڤر في ليليبوت وبروبْدِنغْناغ قِصَّةٌ خَيالِيَّةٌ مُثيرَةٌ. ويَتَّسِمُ أُسْلوبُ سويفت بِالإِبْداعِ والخَيالِ الَّذي يَسْتَطيعُ أَنْ يُحَوِّلَ الأَشْياءَ اليَوْمِيَّةَ العادِيَّةَ إِلى مَشاهِدَ مُمْتِعَةٍ ومُثيرَةٍ، إِذْ نَقْرَأُ بِشَغَفٍ ما حَدَثَ لِجاليڤر، ذٰلِكَ العِمْلاقِ اللَّطيفِ، في بِلادِ الصِّغارِ ليليبوت، أَوْ نَقْرَأُ مُغامَراتِهِ في بروبْدِنغْناغ، حَيْثُ نَجِدُ أَنَّهُ صَغيرٌ جِدًّا بِالمُقارَنَةِ مَعَ مَخْلوقاتِ تِلْكَ البِلادِ، حَتّى إِنَّ الهِرَّةَ تَبْدو- بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ- أَكْبَرَ مِنَ الفيلِ. كانَ سويفت قَصّاصًا خَلّاقًا مَوْهوبًا، فَمَنْ مِنّا لا يَحْبِسُ أَنْفاسَهُ، وهُوَ يُتابِعُ مَشْهَدَ قِيامِ جاليڤر بِحَمْلِ الإِمْبَراطورِ بِيَدِهِ؟ أَوْ تَصَدِّيهِ لِهُجومِ الزَّنابيرِ العِمْلاقَةِ؟

كانَتْ كُتُبُ الرِّحْلاتِ رائِجَةً في أَيّامِ سويفت. وقَدْ كَتَبَ سويفت هٰذِهِ الرِّحْلاتِ بِطَريقَةٍ تَبْدو مَعَها وكَأَنَّها مِنْ تَأْليفِ الكابْتِنِ لِمويل جاليڤر، وهُوَ طَبيبٌ مُثَقَّفٌ يَهْوى رُكوبَ البَحْرِ. فَالرّاوِيَةُ هُوَ جاليڤر نَفْسُهُ، وهو يَسْرُدُ ذِكْرَياتِهِ عَنْ رِحْلاتِهِ إِلى أَماكِنَ بَعيدَةٍ في

الأَرْضِ، وهَدَفُهُ تَزْويدُ النّاسِ بِمَعْلوماتٍ عَنْ مناطِقَ لا يَعْرِفونَها.

إنَّ رائِعَةَ جوناثان سويفْت هذِهِ لَها وَجْهانِ مُتلازِمانِ. فَهِيَ قِصَّةُ مُغامَراتٍ خارِقَةٍ وأَحْداثٍ مُثيرَةٍ وأَوْصافٍ دَقيقَةٍ. ولكِنْ، يَجِبُ أَلّا نَنْسى أَنَّ سويفْت كانَ رَجُلَ سِياسَةٍ، وكِتاباتُهُ هادِفَةٌ، فَهُوَ يَتَوَسَّلُ حِكاياتِهِ حَوْلَ رِحْلاتِ الكائِنِ جاليڤر مِنْبَرًا انْتِقادِيًّا عَنيفًا لِكَثيرٍ مِنْ جَوانِبِ عَصْرِهِ وشُؤونِهِ السِّياسِيَّةِ والاجْتِماعِيَّةِ. لِذلِكَ نَرى، بِكُلِّ وُضوحٍ، أَنَّ البَلاطَ الإمْبَراطورِيَّ في ليليبوت يُشْبِهُ، إلى حَدٍّ بَعيدٍ البَلاطَ المَلَكِيَّ في إنجِلْترا. وهكذا تَمَكَّنَ سويفْت مِنَ التَّعْليقِ عَلى نَمَطِ الحَياةِ في إنجِلْترا وإظْهارِ مَواطِنِ الضَّعْفِ والفَسادِ. وأَبْناءُ ليليبوت الصِّغارُ هُمْ نَموذَجٌ مُصَغَّرٌ لِلْجِنْسِ البَشَرِيِّ، وقَدْ عامَلَهُمْ جاليڤر بِتَواضُعٍ لِأَنَّهُ اعْتَقَدَ أَنَّهُ كُلَّما كانَ الإنْسانُ صَغيرًا كانَ أَقْرَبَ إلى الطِّيبَةِ والاسْتِقامَةِ. لِذلِكَ لَمْ يَتَنَبَّهْ لِلُؤْمِهِمْ ودَهائِهِمْ لأَنَّهُ كانَ يَعْتَزُّ باسْتِقْبالِهِمْ لَهُ في عاصِمَتِهِمْ وبَلاطِهِمِ الإمْبَراطورِيِّ. وتَنْعَكِسُ الآيَةُ في بروبْدِنغْناغ، بِلادِ العَمالِقَةِ، حَيْثُ يَرْمُزُ جاليڤر نَفْسُهُ إلى الجِنْسِ البَشَرِيِّ. وقَدِ اعْتَقَدَ جاليڤر أَنَّ هؤلاءِ العَمالِقَةَ هُمْ وحوشٌ هَمَجِيّونَ. وسَرْعانَ ما اكْتَشَفَ خَطَأَهُ إذْ لَمَسَ أَنَّهُمْ لُطَفاءُ مُسالِمونَ، وحَتّى إنَّهُمْ يَنْظُرونَ بِاشْمِئْزازٍ واحْتِقارٍ إلى المُجْتَمَعِ الإنْجليزِيِّ الَّذي وَصَفَهُ لَهُمْ جاليڤر بِالرَّغْمِ مِنْ إخْلاصِهِ في إظْهارِ حَسَناتِهِ. وهَدَفُ سويفْت مِنْ ذلِكَ إثارَةُ صَدْمَةٍ قاسِيَةٍ لَدى قُرّائِهِ تَهُزُّ فيهِمِ الضَّميرَ البَشَرِيَّ، عَلَّ الإنْسانَ يَعي واقِعَهُ المَريرَ ويَفْتَحُ عَيْنَيْهِ عَلى ما يَتَخَبَّطُ فيهِ مِنْ فَسادٍ وغِشٍّ وخِداعٍ، فَيَعْمَلُ عَلى تَحْقيقِ ذاتِهِ الَّتي لا تَخْلو مِنْ جَوانِبِ الخَيْرِ والصِّدْقِ والاسْتِقامَةِ والفِكْرِ المُبْدِعِ.



رِحْلات جاليڤَر

وُلِدْتُ سَنَةَ ١٦٧٩ في نوتنْجهام، وهِيَ إحْدى مُقاطَعاتِ إنجلْترا الوُسْطى. اِنْتَقَلْتُ، بَعْدَ تَخَرُّجي في المَدْرَسَةِ، إلى جامِعَةِ كامبْرِدْج، ودَرَسْتُ الطِّبَّ مُدَّةَ ثلاثِ سَنواتٍ، عَمِلْتُ بَعْدَها طَبيبًا مُتَمَرِّنًا تَحْتَ إشْرافِ أَحَدِ أَشْهَرِ أَطِبّاءِ لنْدن لِمُدَّةِ أَرْبَعِ سَنواتٍ. ثُمَّ سافَرْتُ إلى هولَنْدا وأَتْمَمْتُ سَنَتَيْنِ مِنَ الدِّراساتِ العُلْيا في جامِعَةِ ليدِن.

بَعْدَ ذلِكَ، بَدَأْتُ العَمَلَ كَطَبيبٍ في إحْدى السُّفُنِ، وقَدْ أَبْحَرْتُ إلى الشَّرْقِ الأَقْصى وإلى بِقاعٍ أُخْرى بَعيدَةٍ. بَعْدَ قَضاءِ حَوالَي ثَلاثِ سَنَواتٍ في البَحْرِ، قَرَّرْتُ الاسْتِقْرارَ في لنْدن، فَتَزَوَّجْتُ واشْتَرَيْتُ مَنْزِلًا. لكِنَّ مُمارَسَةَ المِهْنَةِ لَمْ تَدِرَّ عَلَيَّ مِنَ المالِ ما تَتَطَلَّبُهُ أُمورُ الحَياةِ، لِذا قَرَّرْتُ، بَعْدَ مُوافَقَةِ زَوْجَتي، العَوْدَةَ إلى العَمَلِ في البَحْرِ بُغْيَةَ تَحْسينِ وَضْعي المالِيِّ.

هكَذا عُيِّنْتُ طَبيبًا جَرّاحًا في السَّفينَةِ «أَنْتِلوب» الّتي يَقودُها القُبْطانُ وِلْيَم بريتْشارْد. وقَدْ أَبْحَرْنا في اليَوْمِ الرّابعِ مِنْ مايو عامَ ١٦٩٩، ووُجْهَتُنا جَنوبُ المُحيطِ الهادي.





بَدَأَتِ الرَّحْلَةُ هادِئَةً. ولكِنْ ما إنْ مَرَّتْ بِضْعَةُ أَسابيعَ حَتّى أَخَذْنا نُواجِهُ العَقَباتِ. ولَمّا وَصَلْنا إلى الشَّمالِ الغَرْبِيِّ مِنْ جزيرَةِ تَسْمانيا هَبَّتْ عَواصِفُ هَوْجاءُ فَاسْتَحالَتِ السَّيْطَرَةُ على السَّفينَةِ. وهذا ما دفَعَها إلى الجُنوحِ والاصْطِدامِ بِسِلْسِلَةِ صُخورٍ تَحْتَ سَطْحِ الماءِ.

تَمَكَّنّا مِنْ إنْزالِ قارِبَيْنِ لِلنَّجاةِ. وكُنْتُ، مَعَ سِتَّةِ آخرينَ، في أَحَدِهِما. أَخَذَتِ الأَمْواجُ العاتِيَةُ تَتَلاعَبُ بِهِما، وارْتَفَعا على جِبالٍ مِنَ الماءِ ونَزَلا مُنْقَلِبَيْنِ. فَسَعى كُلٌّ مِنّا إلى التَّخَبُّطِ ومُحاوَلَةِ السِّباحَةِ طَلَبًا لِلنَّجاةِ. ولكِنَّني كُنْتُ النّاجِيَ الوَحيدَ مِنْ بَيْنِ جَماعَةِ السَّفينَةِ، وقَدْ قَذَفَتْني الأَمْواجُ إلى شاطِئٍ صَخْرِيٍّ.

إِبْتَعَدْتُ عَنِ الشّاطِئِ ماشِيًا بِتَثاقُلٍ حَوالَي كيلومِتْرٍ، ولَمْ أَرَ أَيَّ أَثَرٍ يَدُلُّ



عَلى وُجودِ إنْسانٍ عَلى تِلْكَ الأَرْضِ. في الثّامِنَةِ مَساءً، تَوَقَّفْتُ عَنِ المَسيرِ، وقَدْ أَنْهَكَني التَّعَبُ، فَاسْتَلْقَيْتُ أَرْضًا واسْتَغْرَقْتُ في النَّوْمِ.

فَتَحْتُ عَيْنَيَّ صَباحًا، وقَدْ أَشْرَقَ النّورُ، ورَأَيْتُ أَنْ أَقومَ بِجَوْلَةٍ في الجِوارِ مُسْتَكْشِفًا. حاوَلْتُ النُّهوضَ فَلَمْ أَسْتَطِعْ، ولَمْ أَتَمَكَّنْ مِنْ تَحْريكِ يَدَيَّ ورِجْلَيَّ وكَأَنَّها كانَتْ جَميعًا مُثْبَتَةً إلى الأَرْضِ. حَتّى شَعْري الطَّويلُ كانَ مَشْدودًا إلى الأَرْضِ. ولَمْ يَكُنْ أَمامي سِوى النَّظَرِ نَحْوَ السَّماءِ، ولكِنَّ نورَ الشَّمْسِ بَهَرَ عَيْنَيَّ. وكانَ مِمّا زادَ اسْتِغْرابي أَنَّني سَمِعْتُ حَوْلي أَصْواتَ كَلامٍ غَيْرِ مَفْهومٍ.

ثُمَّ أَحْسَسْتُ أَنَّ شَيْئًا يَتَحَرَّكُ عَلى ساقي اليُسْرى. وقَدِ انْتَقَلَ هذا

الشَّيْءُ الحَيُّ إلى صَدْري، ثُمَّ تَسَلَّقَ رَقَبَتي وُصولًا إلى ذَقَني. خَفَضْتُ بَصَري بِقَدْرِ ما أَسْتَطيعُ، فَرَأَيْتُ كائِنًا بَشَرِيًّا صَغيرًا جِدًّا لا يَزيدُ طولُهُ عَلى خَمْسَةَ عَشَرَ سنتيمِتْرًا، يَحْمِلُ بِيَدَيْهِ قَوْسًا وسَهْمًا، ويَضَعُ كِنانَةَ سِهامٍ عَلى ظَهْرِهِ.

في هذِهِ الأَثْناءِ، شَعَرْتُ بِأَنَّ ما يَزيدُ عَلى أَرْبَعينَ مِنْ أَمْثالِ هذا البَشَرِيِّ الصَّغيرِ يَجوبونَ أَنْحاءَ جَسَدي. لَقَدْ تَمَلَّكَنِي العَجَبُ والاسْتِغْرابُ، ولَمْ أَخَفْ مِنْ هذِهِ المَخْلوقاتِ الصَّغيرَةِ فَزَمْجَرْتُ وأَصْدَرْتُ صَوْتًا عَظيمًا مِمّا جَعَلَهُمْ يَتَراجَعونَ مُرْتَعِبينَ.

وبِما أَنَّني لَمْ أَتَحَرَّكْ، فَقَدِ اسْتَجْمَعَ أَحَدُهُمْ شَجاعَتَهُ، وتَسَلَّقَ عَلَيَّ ثانِيَةً. ووَقَفَ يَتَأَمَّلُ وَجْهي. ورَأَيْتُهُ يُحَرِّكُ عَيْنَيْهِ ويَرْفَعُ يَدَيْهِ، وكَأَنَّهُ يُحَيّيني، وهُوَ يَرْطُنُ: «هكيناه دي غول».

لَقَدْ أَزْعَجَني الوَضْعُ الّذي كُنْتُ فيهِ بِقَدْرِ ما حَيَّرَني، فَشَدَدْتُ بِعُنْفٍ مُحاوِلًا التَّحَرُّرَ مِنْ قُيودي. ولكِنّي لَمْ أُفْلِحْ إلّا في فَكِّ بَعْضِ الحِبالِ الّتي



كانَتْ تَرْبِطُ شَعْري. وآلَمَني ذلِكَ كَثيرًا، لكِنَّهُ مكَّنَني مِنْ تَحْريكِ رَأْسي قَليلًا.

تَخَوَّفَ هؤُلاءِ الرِّجالُ الصِّغارُ عِنْدَ ذاكَ، وسَمِعْتُ صَرَخاتِهِمِ الّتي انْتَهَتْ بِصَيْحَةٍ لِزَعيمٍ أَوْ قائِدٍ مِنْهُمْ يَقولُ: «تولغو فوناك». تَبِعَها سُقوطُ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ سَهْمٍ عَلى يَدَيِ اليُسْرى. ثُمَّ طارَتْ مَجْموعَةٌ أُخْرى مِنَ السِّهامِ واسْتَقَرَّتْ عَلى أَنْحاءٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ بَدَني ووَجْهي، أَحْسَسْتُ بِها تَخِزُني كَالإِبَرِ. وقَدْ حاوَلَ آخَرونَ طَعْنَ جَنْبَيَّ بِالرِّماحِ، ولكِنْ رِماحُهُمْ لَمْ تَخْتَرِقْ سُتْرَتي الجِلْدِيَّةَ.

قَرَّرْتُ أَنْ أَظَلَّ هادِئًا، وهذا ما طَمْأَنَهُمْ فَتَرَكوني فَتْرَةً مِنَ الوَقْتِ، كُنْتُ خِلالَها أَسْمَعُ ضَجيجًا وحَرَكَةً وأَصْواتَ طَرْقٍ قُرْبَ قَدَمَيَّ. تَصَرَّفْتُ بِحَذَرٍ حَتّى لا أُثيرَهُمْ، فَحَرَّكْتُ رَأْسي بِهُدوءٍ، واسْتَطَعْتُ أَنْ أَرى هؤُلاءِ الرِّجالَ الصِّغارَ يَعْمَلونَ عَلى إِقامَةِ مِنَصَّةٍ تَرْتَفِعُ عَنِ الأَرْضِ حَوالَي نِصْفِ مِتْرٍ وتَتَّسِعُ لأَرْبَعَةِ أَشْخاصٍ مِنْهُمْ.

عِنْدَما تَمَّ صُنْعُ هذِهِ المِنَصَّةِ شاهَدْتُ أَحَدَهُمْ- ويَبْدو أَنَّهُ صاحِبُ



مَكانَةٍ هامَّةٍ– يَصْعَدُ السُّلَّمَ ويَقِفُ عَلى المِنَصَّةِ. تَقَدَّمَ إلى الأَمامِ وأَخَذَ يُخاطِبُني، فَلَمْ أَفْهَمْ كَلِمَةً مِمّا قالَهُ.

بَعْدَ أَنِ انْتَهى هذا المَسْؤولُ مِنْ كَلامِهِ، أَمَرَ العُمّالَ بِقَطْعِ الحِبالِ الّتي كانَتْ تُقَيِّدُ شَعْري ويَدي اليُمْنى. بَدا أَنَّهُ مُتَوَسِّطُ السِّنِّ، وقَدْ وَقَفَ وَراءَهُ ثَلاثَةُ مُرافِقينَ لا يَزيدُ طولُ الواحِدِ مِنْهُمْ عَنْ طولِ إِصْبعي الوُسْطى. ويَبْدو



أَنَّ الرَّجُلَ كانَ خَطيبًا بارِعًا، فَقَدْ أَتْحَفَني بِخُطْبَةٍ طَويلَةٍ تَنَوَّعَتْ فيها الإيْقاعاتُ ورافَقَتْها الحَرَكاتُ والإشاراتُ الّتي فَهِمْتُ مِنْها تَهْديداتٍ ووُعودًا وبَوادِرَ تَعاطُفٍ وشَفَقَةٍ.

كُنْتُ في غايَةِ الجُوعِ والعَطَشِ، فَما إنِ انْتَهى مِنْ كَلامِهِ حَتّى أَشَرْتُ لَهُ نَحْوَ فَمي عَلَّهُ يَفْهَمُ حاجَتي.

أَدْرَكَ الرَّجُلُ قَصْدي، وأَمَرَ رِجالَهُ بِوَضْعِ السَّلالِمِ عَلى جانِبَيَّ. وقَدْ صَعِدَ عَلَيْها ما يَزيدُ عَلى مِائَةٍ مِنْهُمْ، ومَشَوْا عَلى صَدْري مُتَّجِهينَ إلى فَمي، وهُمْ يَحْمِلونَ سِلالًا مَليئَةً بِاللُّحوم، تَعَرَّفْتُ مِنْ بَيْنِها إلى شِقَقٍ كامِلَةٍ مِنْ لَحْمِ الضَّأْنِ ناضِجَةٍ ومُتَبَّلَةٍ، ولكِنَّها بِحَجْمِ جَناحِ العُصْفورِ.

رُحْتُ أَلْتَهِمُ كُلَّ ثَلاثٍ أَوْ أَرْبَعٍ مِنْ هذِهِ الشِّقَقِ بِلُقْمَةٍ واحِدَةٍ، مَعَ كَثيرٍ مِنَ الخُبْزِ الّذي لا يَتَجاوَزُ الرَّغيفُ مِنْهُ حَجْمَ حَبَّةِ الكَرَزِ. وكانَ هؤُلاءِ البَشَرُ الصِّغارُ مُتَعَجِّبينَ مِنْ كَمِّيَّةِ ما أَكَلْتُ والطَّريقَةِ الّتي الْتَهَمْتُهُ بِها.

ثُمَّ أَشَرْتُ إلى أَنَّني أُريدُ أَنْ أَشْرَبَ، فَقامَ هؤُلاءِ الصِّغارُ الأَذْكِياءُ بِنَصْبِ أَعْمِدَةٍ لَها بَكَراتٌ وحِبالٌ، اسْتَعْمَلوها لِيَرْفَعوا نَحْوَ فَمي بَرْميلًا مِنَ الشَّرابِ شَرِبْتُهُ دُفْعَةً واحِدَةً، لأَنَّ ما فيهِ لَمْ يَزِدْ عَلى مِقْدارِ كُوبٍ واحِدٍ.

تَجَمْهَرَ هؤُلاءِ الرِّجالُ حَوْلي مُعْجَبينَ بِما أَقومُ بِهِ، وأَخَذوا يَهْتِفونَ لي. كانَ بِاسْتِطاعَتي أَنْ أَقْضِيَ عَلى مِئاتٍ مِنْهُمْ بِيَدي الطَّليقَةِ، ولكِنّي قَدَّرْتُ مُعامَلَةَ قائِدِهِم اللَّطيفَةَ لي، وقَرَّرْتُ مُعامَلَتَهُمْ بِالمِثْلِ، بالإضافَةِ إلى أَنَّني أُعْجِبْتُ بِشَجاعَتِهِم الفائِقَةِ لأَنَّهُمُ اقْتَربوا مِنّي وأَنا أَضْعافُ أَضْعافِ حَجْمِهِمْ.

بَعْدَ ذلِكَ جاءَ شَخْصٌ هامٌّ لِيُلْقِيَ عَلَيَّ نَظْرَةً. إنَّهُ صاحِبُ الجَلالَةِ الإمْبراطورُ! خاطَبَني بِلَهْجَةٍ رَقيقَةٍ لَمْ أَفْهَمْ إلّا بَعْضَ الحَرَكاتِ المُرافِقَةِ لَها.

وأَمَرَ مُرافِقيهِ بِأَنْ يَضَعوا مَرْهَمًا لِمُداواةِ أَمْكِنَةِ وَخْزِ السِّهامِ في وَجْهي وجِسْمي.

ثُمَّ اسْتَغْرَقْتُ في نَوْمٍ عَميقٍ، أُرَجِّحُ أَنْ يَكونَ بِفِعْلِ دَواءٍ مُنَوِّمٍ وُضِعَ في الشَّرابِ لِهٰذِهِ الغايَةِ.

اِسْتَيْقَظْتُ، في صَباحِ اليَوْمِ التّالي، لأَجِدَ حَوالَي خَمْسِمائَةٍ مِنَ النَّجّارينَ، والمُهَنْدِسينَ مُنْهَمِكينَ في صُنْعِ عَرَبَةٍ أَوْ مَرْكَبَةٍ لِيَحْمِلوني عَلَيْها إلى عاصِمَتِهِمْ.

كانَ ما صَنَعوهُ عِبارَةً عَنْ هَيْكَلٍ خَشَبِيٍّ، طُولُهُ أَكْثَرُ مِنْ مِتْرَيْنِ وعَرْضُهُ حَوالَي مِتْرٍ واحِدٍ، ويَرْتَفِعُ عَنِ الأَرْضِ سَبْعَةَ سنتمِتْراتٍ تَقْريبًا، ويَسيرُ عَلى اثْنَتَيْنِ وعِشْرينَ عَجَلَةً.

عِنْدَ إنْجازِ العَرَبَةِ وَضَعوها بِمُوازاتي، وأَحْضَروا ثَمانينَ قَضيبًا مَتينًا لَها بَكَراتٌ وحِبالٌ، وذٰلِكَ لِرَفْعي إلى العَرَبَةِ. وثُبِّتَتْ حِبالٌ مَتينَةٌ، بِواسِطَةِ كُلّاباتٍ، إلى الأَرْبِطَةِ الّتي كانَ العُمّالُ قَدْ لَفّوها حَوْلَ رَقَبَتي ويَدَيَّ ورِجْلَيَّ وأَنْحاءِ جِسْمي.

ثُمَّ قامَ تِسْعُمِائَةٍ مِنَ الرِّجالِ الأَقْوِياءِ بِسَحْبِ هٰذِهِ الحِبالِ بِواسِطَةِ البَكَراتِ. وقَبْلَ مُرورِ ثَلاثِ ساعاتٍ، كُنْتُ قَدْ رُفِعْتُ وأُلْقيتُ عَلى العَرَبَةِ الخَشَبِيَّةِ، حَيْثُ قُيِّدْتُ بِإحْكامٍ. وُضِعَ حَوالَي أَلْفٍ وَخَمْسِمائَةٍ مِنْ أَحْسَنِ جِيادِ الإمْبَراطورِ، في مَجْموعاتٍ، لِجَرِّ العَرَبَةِ. وكانَ ارْتِفاعُ الجَوادِ مِنْها لا يَزيدُ عَنْ عَشَرَةِ سنتمِتْراتٍ.

كانَتِ الرِّحْلَةُ طَويلَةً وشاقَّةً، وقَدْ غَفَوْتُ خِلالَها. لٰكِنّي أَفَقْتُ فَجْأَةً، عِنْدَما وَضَعَ جُنْدِيٌّ فُضولِيٌّ رَأْسَ رُمْحِهِ داخِلَ أَنْفي. وهٰذا ما جَعَلَني أَعْطِسُ بِقُوَّةٍ مِمّا أَثارَ الرُّعْبَ في قُلوبِ كُلِّ مَنْ كانَ حَوْلي.



عِنْدَما اقْتَرَبْنا مِنَ المَدينَةِ، خَرَجَ الإمْبَراطورُ وحاشِيَتُهُ لاسْتِقْبالِنا، ولكنَّ ضُبّاطَهُ أَبْقَوْهُ بَعيدًا عَنّي حِفاظًا عَلى سَلامَتِهِ.

كانَ هُناكَ مَعْبَدٌ قَديمٌ مَهْجورٌ، كَبيرٌ نِسْبِيًا. فَقَرَّروا تَخْصيصَهُ لي لِلإقامَةِ فيهِ، حَيْثُ إنَّ الأَبْنِيَةَ الأُخْرى صَغيرَةٌ جِدًّا بِالنِّسْبَةِ لي.

كانَ مَدْخَلُ بِعُلُوِّ مِتْرٍ وعِشْرينَ سنتمِتْرًا وعَرْضٍ يَبْلُغُ حَوالَي سِتّينَ سنتمِتْرًا. فكانَ بِاسْتِطاعَتي أَنْ أَمُرَّ مِنْ خِلالِهِ زَحْفًا. وقَدْ رَبَطَ العُمّال عَلى جانِبَي المَدْخَلِ، حَوالَي مِائَةٍ مِنَ السَّلاسِل- تُشْبِهُ سَلاسِلَ السّاعاتِ الّتي نَعْرِفُها- وَأَوْثَقوا بِها يَدَيَّ ورِجْلَيَّ لِمَنْعي مِنَ الهَرَبِ.

كانَ يَقومُ، في مُقابِلِ المَعْبَدِ، بُرْجٌ يَرْتَفِعُ أَكْثَرَ مِنْ مِتْرٍ ونِصْفٍ، فَكانَ الإمْبَراطورُ ورِجالُهُ يَسْتَطيعون أَنْ يَرَوْني دونَ أَنْ أَراهُمُ.

تَقاطَرَ إلى المَعْبَدِ في الأَيّامِ التّالِيَةِ، ما يَرْبو عَلى مِائةِ أَلْفِ مُواطِنٍ، لِيَرَوْا ذلِكَ الإنْسانَ العِمْلاقَ الّذي أَتَى بِلادَهُمْ. وكانَ الفُضولِيّونَ مِنْهُمْ يَتَسَلَّقونَ بِالأُلوفِ عَلى السَّلالِمِ ويَتَجَوَّلونَ عَلَيَّ. وقَدْ لَمَسَ الإمْبَراطورُ مَدى الإزْعاجِ الّذي يُسَبِّبونَهُ لي، فَأَصْدَرَ أَمْرًا يُمْنَعُ بِمُوجِبِهِ النّاسُ مِنَ الاقْتِرابِ مِنَ المَعْبَدِ وإلّا تَعَرَّضوا لِعُقوبَةِ الإعْدامِ.



ولَقَدْ سَرَّني اهْتِمامُ الإمْبَراطورِ بِراحَتي، وسَرْعانَ ما تَبيَّنَ لي أَنَّهُ طَيِّبُ القَلْبِ ومُتَفَهِّمٌ لِوَضْعي، فَلَقَدْ أَمَرَ بِقَطْعِ كُلِّ الحِبالِ الّتي تُقَيِّدُني والإبْقاءِ فَقَطْ عَلى السَّلاسِلِ المَرْبوطَةِ إلى يَدَيَّ ورِجْلَيَّ، وطُولُ الواحِدِ مِنْها يُقارِبُ المِتْرَيْنِ. وسُرِرْتُ كَثيرًا لأَنَّهُ أَصْبَحَ بِاسْتِطاعَتي الوُقوفُ والتَّحَرُّكُ قَليلًا، ولَوْ خُطْوَةً واحِدَةً أَوِ اثْنَتَيْنِ. أَخَذَ النّاسُ يَهْتِفونَ ويَصيحونَ مُنْذَهِلينَ لَمّا رَأَوْني أَقِفُ وأُشْرِفُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَعلَى. ولَمّا تَعِبْتُ ونَشَدْتُ الرّاحَةَ تَمَكَّنْتُ – لِطولِ السَّلاسِلِ – مِنَ الزَّحْفِ إلى داخِلِ المَعْبَدِ.

بَعْدَ ساعاتٍ أَتى الإمْبَراطورُ وأَهْلُ البَلاطِ لِزِيارَتي: وُضِعَتْ مَقاعِدُ عَلى مَسافَةِ حَوالَي ثَلاثَةِ أَمْتارٍ مِنّي، جَلَسَ عَلَيْها الإمْبَراطورُ والإمْبَراطورَةُ وبَعْضُ الأُمَراءِ والأَميراتِ. وأَخَذْتُ أَنْظُرُ إلَيْهِمْ مُتَفَحِّصًا فيما هُمْ فَعَلوا الشَّيْءَ عَيْنَهُ. لاحَظْتُ أَنَّ ثِيابَ الإمْبَراطورِ كانَتْ بَسيطَةً، خالِيَةً مِنَ الزَّخْرَفَةِ، تَجْمَعُ بَيْنَ الطِّرازَيْنِ الآسْيَوِيِّ والأوروبِّيِّ. كانَ عَلى رَأْسِهِ خُوذَةٌ ذَهَبِيَّةٌ مُرَصَّعَةٌ بِالجَواهِرِ وفي أَعْلاها ريشَةٌ. أَمّا سَيْفُهُ، الّذي لَمْ يَتَجاوَزْ طولُهُ سَبْعَةَ سنتِمِتْراتٍ، فَكانَ مِقْبَضُهُ وغِمْدُهُ مُزَيَّنَيْنِ بِالأَلْماسِ.

خاطَبَني الإمْبَراطورُ بِصَوْتٍ عالي الطَّبَقَةِ. وبِالطَّبْعِ لَمْ أَفْهَمْ شَيْئًا مِمّا قالَهُ. وقَدْ حاوَلْتُ أَنْ أَتَفاهَمَ مَعَهُ بِالإنْجِليزِيَّةِ، وبِكُلِّ اللُّغاتِ الّتي تَعَلَّمْتُ شَيْئًا مِنْها خِلالَ أَسْفاري كَالفَرَنْسِيَّةِ والإيطالِيَّةِ والإسْبانِيةِ واللّاتينِيَّةِ والهولَنْدِيَّةِ ولكِنْ مِنْ دونِ جَدْوى.

بَعْدَ حَوالَي ساعَتَيْنِ، غادَرَ الإمْبَراطورُ وصَحْبُهُ، وتَرَكوني تَحْتَ حِراسَةِ فِرْقَةٍ مِنَ الجُنودِ لِمَنْعِ تَعَدِّياتِ حُشودِ النّاسِ. ولكِنَّ بَعْضَ الجُنودِ قاموا– بِكُلِّ حَماقَةٍ– بِإطْلاقِ بَعْضِ السِّهامِ عَلَيَّ وأَنا جالِسٌ خارِجَ بَيْتي. وكادَ واحِدٌ مِنْ تِلْكَ السِّهامِ أَنْ يُصيبَني في عَيْني.

لَمّا رَأى الضّابِطُ المَسْؤولُ ما فَعَلَهُ جُنودُهُ أَمَرَ بِإِلْقاءِ القَبْضِ عَلى سِتَّةٍ مِنْ هؤلاءِ الجُنودِ المُذْنِبينَ وتَقْييدِهِمْ ووَضْعِهِمْ عَلى كَفِّ يَدي. قُمْتُ بِوَضْعِ خَمْسَةٍ مِنْهُمْ في جَيْبِ مِعْطَفي، وتَظاهَرْتُ بِوَضْعِ السّادِسِ في فَمي وكَأَنَّني أَنْوي أَكْلَهُ حَيًّا. صَرَخَ المِسْكينُ مَذْعورًا، ثُمَّ تَنَبَّهَ الجُنودُ أَيْضًا عِنْدَما أَخْرَجْتُ سِكّيني وأَتَيْتُ بِواحِدٍ مِنَ الأَسْرى مِنْ جَيْبي، فَاعْتَقَدوا أَنَّني سَأُقَطِّعُهُ إِرْبًا إِرْبًا. ولكِنّي اسْتَعْمَلْتُ السِّكّينَ لأَقْطَعَ قَيْدَهُ وقُيودَ رِفاقِهِ، ثُمَّ أَنْزَلْتُهُمْ جَميعًا، بِرِفْقٍ، إِلى الأَرْضِ سالِمينَ.

أُعْجِبَ الجُنودُ والنّاسُ بِما فَعَلْتُهُ، وقَدَّروا رُوحَ التَّسامُحِ الّتي بَدَرَتْ مِنّي. ونَتيجَةً لِهذا العَمَلِ تَعَزَّزَتْ مَكانَتي وذاعَ صيتي.

ويَبْدو أَنَّ مَصيري كانَ على بِساطِ البَحْثِ بَيْنَ الإِمْبَراطورِ ومُسْتَشاريهِ. كانوا يَخْشَوْنَ مِمّا قَدْ أُسَبِّبُهُ مِنْ دَمارٍ لَوْ أَنْقَذْتُ نَفْسي وأَصْبَحْتُ طَليقًا، ويَحْسُبونَ أَلْفَ حِسابٍ لِمَسْأَلَةِ تَوْفيرِ الطَّعامِ لي. وهذِهِ المَسْأَلَةُ الأَخيرَةُ تُثْقِلُ عَلى خَزينَةِ الدَّوْلَةِ وقَدْ تُسَبِّبُ مَجاعَةً.

عَلِمْتُ، فيما بَعْدُ، أَنَّ بَعْضَ مُسْتَشاري الإِمْبَراطورِ أَشاروا بِتَجْويعي حَتّى المَوْتِ، أَوْ قَتْلي بِواسِطَةِ سِهامٍ مَسْمومَةٍ. ولكِنَّهُمْ لَمْ يَأْخُذوا بِذلِكَ خَشْيَةَ أَنْ تُسَبِّبَ نَتانَةُ جُثَّتي الهائِلَةِ وَباءً في المَدينَةِ. وأَخيرًا، وبِنَتيجَةِ تَأَثُّرِ الجَميعِ بِالطَّريقَةِ الّتي عامَلْتُ بِها الجُنودَ السِّتَّةَ، تَقَرَّرَ إِبْقائي حَيًّا. ولِتَدْبيرِ مَسْأَلَةِ إِطْعامي، فُرِضَ عَلى القُرى الواقِعَةِ ضِمْنَ مَسافَةِ ثَمانِمائَةِ مِتْرٍ مِنَ العاصِمَةِ، أَنْ تُقَدِّمَ، كُلَّ يَوْمٍ، سِتَّةَ ثيرانٍ وأَرْبَعينَ خَروفًا وغَيْرَها مِنَ المُؤَنِ، بِالإِضافَةِ إِلى كَمِّيّاتٍ كَبيرَةٍ مِنَ الخُبْزِ والشَّرابِ. وقَدْ أَمَرَ الإِمْبَراطورُ بِتَخْصيصِ سِتِّمِائَةٍ مِنَ الخَدَمِ لِيَقوموا عَلى خِدْمَتي، ونُصِبَتِ الخِيامُ، حَوْلَ مَنْزِلي، لإِيوائِهِمْ.



وتَمَّ أَيْضًا تَعْيينُ أُسْتاذٍ خَبيرٍ لِتَعْليمي لُغَتَهُمْ. وسَرْعانَ ما بَدَأْتُ أَشْعُرُ أَنَّ هؤلاءِ الصِّغارَ أَخَذوا يَتَقَبَّلونني كَمُواطِنٍ مِنْهُمْ بِالرَّغْمِ مِنْ ضَخامَةِ حَجْمي.

ثُمَّ جاءَتْ بادِرَةٌ طَيِّبَةٌ أُخْرى مِنَ الإمْبَراطورِ، إذْ أَمَرَ جَيْشَهُ، بِكُلِّ رِجالِهِ وسِلاحِهِ وجِيادِهِ، بِالقِيامِ بِعَرْضٍ عَسْكَرِيٍّ في السَّهْلِ المُنْبَسِطِ أَمامَ مَنْزِلي، وذلِكَ لِجَعْلِ صُورَتي مَأْلوفَةً لَدَيْهِمْ.

تَمَكَّنْتُ، بَعْدَ بِضْعَةِ أَشْهُرٍ مِنَ الدِّراسَةِ، مِنِ اكْتِسابِ مَعْرِفَةٍ عَمَلِيَّةٍ في لُغَةِ مَمْلَكَةِ ليليبوت، وهذا هُوَ اسْمُ بِلادِهِمْ كَما عَلِمْتُ. وكانَ الإمْبَراطورُ يَأْتي إِلَيَّ مِنْ وَقْتٍ لِآخَرَ، لِيَتَحَدَّثَ مَعي ويَبْحَثَ بَعْضَ الشُّؤونِ. وكانَ جَلالَتُهُ يَحْرِصُ عَلى أَنْ يُرِيَني بَعْضَ مَعالِمِ بِلادِهِ ويُطْلِعَني عَلى عاداتِ أَهْلِها.

أُخِذْتُ، في أُولى هذِهِ الزِّياراتِ، لِمُشاهَدَةِ مُباراةٍ في المَشْيِ عَلى الحِبالِ كَما يَفعَلُ البَهْلَوانُ في عالَمِنا. وكانَ يُمارِسُ هذا الفَنَّ المُرَشَّحونَ لِمَناصِبَ عُلْيا في القَصْرِ. فَكُلَّما شَغَرَتْ وَظيفَةٌ رَفيعَةٌ، كانَ خَمْسَةٌ أَوْ سِتَّةٌ مِنَ المُرَشَّحينَ يَتَقَدَّمونَ لِهذِهِ المُباراةِ لِاخْتِيارِ الأَفْضَلِ بَيْنَهُمْ.

تَبِعَ ذلِكَ عَرْضٌ آخَرُ مُثيرٌ، إِذْ قامَ المُتَسابِقونَ بِالرَّقْصِ عَلى الحَبْلِ والقَفْزِ، وكانَ الفائِزُ مَنْ رَقَصَ بِرَشاقَةٍ ولَمْ يَقَعْ عَلى الأَرْضِ.

مُباراةٌ أُخْرى غَريبَةٌ مِنْ مُسابَقاتِ الإمْبَراطورِ جَرَتْ عِنْدَما قامَ الإمْبَراطورُ نَفْسُهُ بِحَمْلِ عَصًا مَمْدودَةٍ بِمُوازاةِ الأَرْضِ. ثُمَّ أَخَذَ كِبارُ مُساعِديهِ يَتَقَدَّمونَ، واحِدًا بَعْدَ الآخَرِ، ويَقْفِزونَ فَوْقَها أَوْ يَزْحَفونَ تَحْتَها. وكانَتِ الجائِزَةُ الكُبْرى مِنْ نَصيبِ مَنْ قامَ بِعَمَلِهِ بِخِفَّةٍ وكَرَّرَ القَفْزَ والزَّحْفَ أَكْبَرَ عَدَدٍ مِنَ المَرّاتِ، وقَدْ مُنِحَ خَيْطًا حَريرِيًّا أُرْجُوانِيًّا. أَمّا الّذي حَلَّ في المَرْتَبَةِ الثّانِيَةِ فَقَدْ نالَ خَيْطًا أَصْفَرَ. وكانَ نَصيبُ الثّالِثِ خَيْطًا أَبْيَضَ. وكانَ حامِلو مِثْلِ هذِهِ الشّاراتِ يُرَوْنَ دائِمًا في أَرْجاءِ القَصْرِ.



وقَدِ ابْتَكَرَ الإمْبَراطورُ، في أَحَدِ الأَيّام، لُعْبَةً جديدَةً: أَمَرَني بِأَنْ أَقِفَ مُباعِدًا بَيْنَ رِجْلَيَّ، وأَمَرَ قائِدَ الجَيْشِ بِجَعْلِ جُنودِهِ يَمُرّونَ تَحْتي.

مَرَّ المُشاةُ في طَوابيرَ مُتتابِعَةٍ، كُلٌّ مِنْها بِعَرْضِ أَرْبَعَةٍ وعِشْرينَ فَرْدًا. ثُمَّ تَبِعَهُمُ الخَيّالَةُ يَرْكَبونَ جِيادَهُمْ، كُلُّ سِتَّةَ عَشَرَ مِنْهُمْ في صَفٍّ واحِدٍ، فيما كانَتِ الطُّبولُ تُقْرَعُ والرّاياتُ المُلَوَّنَةُ تَخْفِقُ. لَقَدْ كانَ عَرْضًا مُثيرًا مَرَّ فيهِ بَيْنَ رِجْلَيَّ ثَلاثَةُ آلافِ جُنْدِيٍّ مِنَ المُشاةِ وأَكْثَرُ مِنْ أَلْفِ فارِسٍ.



بَعْدَ فَتْرَةٍ قَصيرَةٍ، رَأى الإمْبَراطورُ أَنَّ الوَقْتَ قَدْ حانَ لِمَنْحي حُرِّيَّتي. لكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذلِكَ إلّا بَعْدَ أَنْ جَعَلَني أُوَقِّعُ عَلى ميثاقٍ رَسْمِيٍّ أَتَعَهَّدُ فيهِ بِالوَلاءِ لِلإمْبراطورِ، وبِوَضْعِ قُدْراتي في خِدْمَتِهِ سَواءٌ في البَحْرِ أَوْ في البَرِّ، وخُصوصًا في وَقْتِ الحَرْبِ.

أَوَّلُ ما طَلَبْتُهُ بَعْدَ نَيْلِ حُرِّيَّتي كانَ زِيارَةَ عاصِمَتِهِمْ ميلْدِنْدو. وقَدْ سَمَحَ لي الإمْبَراطورُ بِذلِكَ بِشَرْطِ أَنْ أَعِدَ بِعَدَمِ تَعْريضِ السُّكّانِ لِلخَطَرِ، وعَدَمِ المَساسِ بِبُيوتِهِمْ. وقَدْ تَمَّ إخْطارُ أَهْلِ المَدينَةِ، مُسْبَقًا، بِهذِهِ الزِّيارَةِ.

كانَ يُحيطُ بِالمَدينَةِ سُورٌ يَعْلو قُرابَةَ خَمْسَةٍ وسَبْعينَ سنتِمِتْرًا، فَخَطَوْتُ مِنَ فَوْقِ البَوّابَةِ الكُبْرى، ومَشَيْتُ بِحَذَرٍ في الطَّريقِ الرَّئيسَةِ. وقَدْ خَلَعْتُ مِعْطَفي كَيْ لا أُخَرِّبَ سُطوحَ المَنازِلِ وأَفاريزَها.

كانَ قَصْرُ الإمْبَراطورِ في وَسَطِ المَدينَةِ، وهُوَ يَعْلو أَكْثَرَ مِنْ مِتْرٍ ونِصْفٍ. ولَمّا كانَتْ مَبانيهِ مُرْتَفِعَةً ذَهَبْتُ، في صَباحِ اليَوْمِ التّالي، إلى الحَديقَةِ المَلَكِيَّةِ، وقَطَعْتُ بَعْضَ الأَشْجارِ الكَبيرَةِ بِواسِطَةِ سِكّينِ الجَيْبِ. وقَدِ اسْتَعْمَلْتُ خَشَبَها لأَصْنَعَ كُرْسِيَّيْنِ صَغيرَيْنِ وعَصًا. وبِذلِكَ تَمَكَّنْتُ مِنَ الخَطْوِ فَوْقَ الأَبْنِيَةِ العالِيَةِ، فَكُنْتُ أَضَعُ إحْدى رِجْلَيَّ عَلى أَحَدِ الكُرْسِيَّيْنِ، وأَنْقُلُ رِجْلي الأُخْرى فَوْقَ البِناءِ إلى الأَرْضِ مِنَ الجِهَةِ الثّانِيَةِ ثُمَّ أُحْضِرُ الكُرْسِيَّ بِواسِطَةِ العَصا. وهكَذا وَصَلْتُ إلى السّاحَةِ الكُبْرى حَيْثُ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَنْظُرَ مِنَ النَّوافِذِ إلى داخِلِ القَصْرِ وأَرى الإمْبَراطورَ والإمْبَراطورَةَ وأَفْرادَ العائِلَةِ المالِكَةِ. وكانَ شَرَفًا كَبيرًا لي ومَدْعاةَ سُرورٍ أَنْ تَمُدَّ الإمْبَراطورَةُ يَدَها خارِجَ إحْدى النَّوافِذِ لأُقَبِّلَها.

بَعْدَ مُرورِ حَوالَي أُسْبوعَيْنِ جاءَني وَزيرُ الدّاخِلِيَّةِ، وطَلَبَ أَنْ أَرْفَعَهُ عَلى يَدي لِيُحَدِّثَني بِشْكْلٍ سِرِّيٍّ، بِأُمورٍ هامَّةٍ تَتَعَلَّقُ بِالدَّوْلَةِ.



أَعْلَمَني أَوَّلًا أَنَّ هُناكَ مَسْأَلَتَيْنِ سِياسِيَّتَيْنِ كُبْرَيَيْنِ تَشْغَلانِ بالَ الإِمْبَراطورِ وحُكومَتِهِ. فَقَدْ كانَ في البِلادِ حِزْبانِ مُتَنازِعانِ، ويُخْشَى أَنْ يَتَحَوَّلَ الخِلافُ المُسْتَحْكِمُ بَيْنَهُما إلى حَرْبٍ أَهْلِيَّةٍ. وكانَ هُناكَ خَطَرٌ دائِمٌ يُهَدِّدُ البِلادَ وهُوَ احْتِمالُ قِيامِ عَدُوِّهِمِ القَوِيِّ بِغَزْوِ بِلادِهِمْ.

أَمّا الحِزْبانِ المُتَنازِعانِ فَكانا حِزْبَ «ترامِكْسان» وحِزْبَ «سلامِكْسان»، وكانَ العِداءُ مُسْتَعِرًا بَيْنَهُما حَوْلَ مَسْأَلَةِ ارْتِفاعِ الأَحْذِيَةِ. وبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ حِزْبَ «الكَعْبِ العالي» هُوَ حِزْبٌ عَريقٌ في البِلادِ، إلاّ أَنَّ الإِمْبَراطورَ وحُكومَتَهُ الحالِيَّةَ مِنْ مُحَبِّذي حِزْبِ «الكَعْبِ المُنْخَفِضِ». لِذلِكَ كانَتْ كُلُّ المَناصِبِ الحُكومِيَّةِ والمَراكِزِ الهامَّةِ مِنْ نَصيبِ أَعْضاءِ هذا الحِزْبِ. وقَدْ وَصَلَتِ الخُصومَةُ بَيْنَ الحِزْبَيْنِ إلى امْتِناعِ أَعْضاءِ كُلِّ حِزْبٍ عَنِ التَّحَدُّثِ مَعَ خُصومِهِم أَوْ تَناوُلِ الطَّعامِ مَعَهُمْ.

بِالإِضافَةِ إلى هذا النِّزاعِ المُنْذِرِ بِقِيامِ اضْطِراباتٍ أَهْلِيَّةٍ، كانَ الخَطَرُ الخارِجِيُّ يَتَمَثَّلُ بِمَمْلَكَةِ جَزيرَةِ بليفوسكو الَّتي تُهَدِّدُ بِغَزْوِ ليليبوت، أَمّا سَبَبُ النِّزاعِ بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ فَقائِمٌ مُنْذُ عِدَّةِ أَجْيالٍ ويَعودُ إلى الخِلافِ حَوْلَ الطَّريقَةِ الصَّحيحَةِ لِكَسْرِ البَيْضَةِ المَسْلوقَةِ.

ويَبْدو أَنَّ الجَميعَ كانوا يَرَوْنَ أَنَّ الطَّريقَةَ الطَّبيعِيَّةَ التَّقْليدِيَّةَ لِتَقْشيرِ البَيْضَةِ المَسْلوقَةِ تَبْدَأُ بِكَسْرِها مِنْ ناحِيَةِ الطَّرَفِ الأَكْبَرِ. ولكِنَّ الأَميرَ الصَّغيرَ، جَرَحَ إِصْبَعَهُ مَرَّةً وهُوَ يُقَشِّرُ البَيْضَةَ. فَقامَ والِدُهُ الإِمْبَراطورُ بِإِصْدارِ مَرْسومٍ يَقْضي بِوُجوبِ البَدْءِ بِتَقْشيرِ البَيْضَةِ المَسْلوقَةِ مِنَ الطَّرَفِ الأَصْغَرِ.

قابَلَ النّاسُ هذا التَّدْبيرَ الجَديدَ بِالرَّفْضِ، ويُسَجِّلُ التّاريخُ قِيامَ سِتِّ ثَوْراتٍ أَوْدَتْ بِحَياةِ إِمْبَراطورٍ وخَسارَةِ آخَرَ عَرْشَهُ. وكانَتْ تُثيرُ هذِهِ الاضْطِراباتِ وتُغَذّيها حُكومَةُ بليفوسكو، الدَّوْلَةِ المُقابِلَةِ عَلى المَضيقِ البَحْرِيِّ، حيثُ كانَ المُنْشَقّونَ المُنْهَزِمونَ مِنْ أَهْلِ ليليبوت يَلْجَأونَ.



ويُقَدَّرُ أَنَّ أَكْثَرَ مِنْ أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ مُواطِنٍ أُعْدِموا في ليليبوت، عَلى مَرِّ العُصورِ، مُفَضِّلينَ المَوْتَ عَلى التَّقَيُّدِ بِمَرْسومِ كَسْرِ قِشْرَةِ البَيْضَةِ المَسْلوقَةِ مِنَ الطَّرَفِ الأَصْغَرِ.

كانَتْ كُلُّ الكُتُبِ والنَّشراتِ الّتي تُؤَيِّدُ «الطَّرَفَ الأَكْبَرَ» مَمْنوعَةً مَنْعًا باتًّا في ليليبوت، وكانَتِ الحُكومَةُ تُضَيِّقُ عَلى أَعْضاءِ هذا الحِزْبِ وأَنْصارِهِ.

وعَلِمْتُ أَيْضًا أَنَّ إمْبَراطورَ بليفوسكو قَدْ أَعْلَنَ الحَرْبَ عِدَّةَ مَرّاتٍ، تَأْييدًا لِجَماعَةِ «الطَّرَفِ الأَكْبَرِ». وقَدْ خَسِرَتْ ليليبوت في هذِهِ الحُروبِ

أَرْبَعينَ سَفينَةً كَبيرَةً وعَدَدًا كَبيرًا مِنَ السُّفُنِ الصَّغيرَةِ، وفَقَدَتْ أَكْثَرَ مِنْ ثَلاثينَ أَلْفًا مِنْ خيرَةِ جُنودِها وبَحّارَتِها. وبِالطَّبْعِ أَصابَتْ بليفوسكو خَسائِرُ مُماثِلَةٌ.

وقَدْ عَلِمَ الإمْبراطورُ مُؤَخَّرًا، مِنْ جِهازِ مُخابَراتِهِ، أَنَّ أُسْطولًا كَبيرًا في مَوانِئِ بليفوسكو يَتَهَيَّأُ لِلقِيامِ بِغَزْوِ ليليبوت. لِذلِكَ اسْتَنْجَدَ بي لِمُساعَدَةِ بِلادِهِ عَلى مُواجَهَةِ الأَخْطارِ المُحْدِقَةِ بِها.

كانَتْ مُهِمَّتي الأُولى اسْتِطْلاعَ البَحْرِ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ بليفوسكو، مِنْ دونِ أَنْ يَراني الأَعْداءُ، إذْ يَبْدو أَنَّهُمْ لَمّا يَدْروا بِوُجودي في ليليبوت.

عَلِمْتُ مِنْ قادَتِنا البَحْرِيِّينَ أَنَّ عَرْضَ القَنالِ سَبْعُمِائَةٍ وثَلاثونَ مِتْرًا تَقْريبًا، وأَنَّ عُمْقَ الماءِ في الدّاخِلِ قَدْ يَتَجاوَزُ مِائَةً وثَمانينَ سنتيمِتْرًا.

تَمَرْكَزْتُ وَراءَ التَّلِّ المُطِلِّ عَلى البَحْرِ، وأَخَذْتُ أَسْتَطْلِعُ مَرافِئَ العَدُوِّ بِواسِطَةِ مِنْظاري، ورَأَيْتُ أُسْطولَهُ. كانَ هُناكَ ما يُقارِبُ خَمْسينَ سَفينَةً حَرْبِيَّةً، بِالإضافَةِ إلى العَديدِ مِنْ سُفُنِ النَّقْلِ والتَّمْوينِ. فَرَسَمْتُ خُطَّةً بِسُرْعَةٍ.



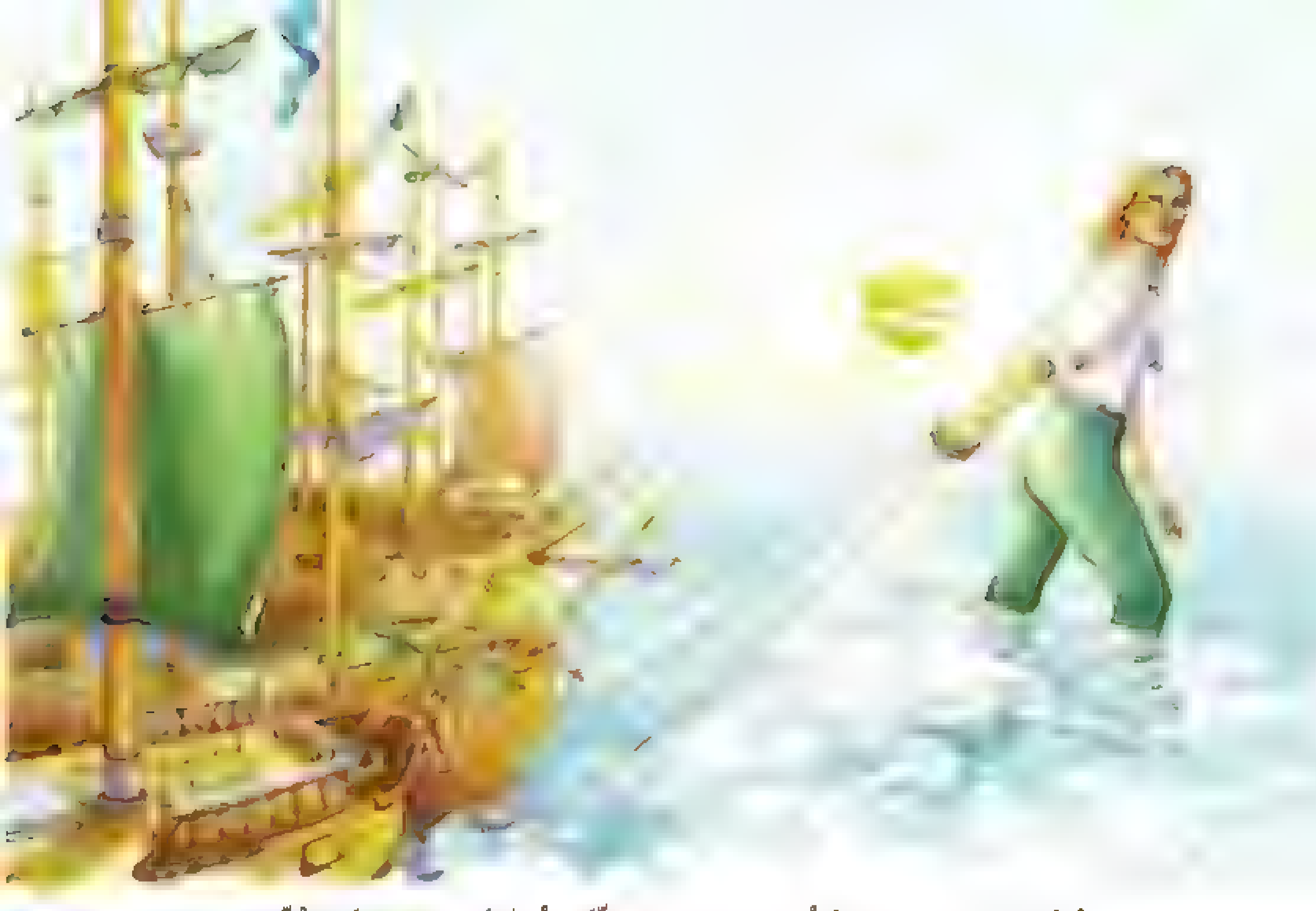
فِي مَرْكَزِ قِيادَةِ البَحْرِيَّةِ، طَلَبْتُ الكَثيرَ مِنَ الحِبالِ- وهِيَ كَالخيطانِ الّتي نَعْرِفُها- وقُضْبانًا حَديدِيَّةً كُلُّ واحِدٍ مِنْها كَأَنَّهُ إِبْرَةٌ مِنْ إِبَرِ الخِياطَةِ. جَدَلْتُ كُلَّ ثَلاثَةِ حِبالٍ أَوْ أَرْبَعَةٍ مَعًا، وَثَنَيْتُ قُضْبانَ الحَديدِ عَلى شَكْلِ كُلّاباتٍ. وأَصْبَحَ لَدَيَّ أَكْثَرُ مِنْ خَمْسينَ حَبْلاً قَوِيًّا في طَرَفِ كُلٍّ مِنْها كُلّابٌ.

في الوَقْتِ المُناسِبِ حَمَلْتُ الحِبالَ وذَهَبْتُ إلى البَحْرِ. خَلَعْتُ مِعْطَفي وقُبَّعَتي وحِذائي، وخُضْتُ في ماءِ المَضيقِ والحِبالُ مَعي.

اُضْطُرِرْتُ، في وَسَطِ المَسافَةِ، لِلسِّباحَةِ حَوالَي ثَلاثَةِ أَمْتارٍ حَتّى لَمَسَتْ رِجْلايَ القَعْرَ ثانِيَةً. ثُمَّ أَكْمَلْتُ طَريقي مُخَوِّضًا في الماءِ حَتّى وَصَلْتُ إلى حَيْثُ سُفُنُ الأَعْداءِ.

عِنْدَما رَآني بَحّارَةُ السُّفُنِ فَرّوا إلى الشّاطِئِ مُتَفَرِّقينَ. لكِنَّهُمْ لَمْلَموا صُفوفَهُمْ هُناكَ، وأَطْلَقوا نَحْوي آلافَ السِّهامِ. كُنْتُ قَدْ تَوَقَّعْتُ إِمْكانِيَّةَ حُدوثِ مِثْلِ هذا الهُجومِ عَلَيَّ، لِذلِكَ أَحْضَرْتُ نَظّارَتي مَعي فَوَضَعْتُها وحَمَيْتُ عَيْنَيَّ مِنَ الأَذى.





جُلْتُ بِحَذَرٍ بَيْنَ السُّفُنِ الحَرْبِيَّةِ مُعَلِّقًا خُطّافًا في مُقَدَّمِ كُلِّ واحِدَةٍ، ثُمَّ رَبَطْتُ الحِبالَ بَعْضَها بِبَعْضٍ، وعُدْتُ أَدْراجي إلى شاطِئِ لَيليبوت جارًّا وَرائي مُعْظَمَ أُسْطولِ بليفوسكو. قُمْتُ، بَعْدَ ذلِكَ، بِرِحْلَةٍ أُخْرى أَحْضَرْتُ فيها ما تَبَقّى مِنْ سُفُنٍ حَرْبِيَّةٍ. وهكَذا اسْتَقْبَلَني الإمْبَراطورُ، مَعَ حاشِيَتِهِ، وقَدْ غَمَرَتْهُ فَرْحَةُ ذلِكَ النَّصْرِ الحاسِمِ الّذي لَمْ يَكُنْ يَحْلُمُ بِمِثْلِهِ. وقَدْ أَنْعَمَ عَلَيَّ الإمْبَراطورُ، في ذلِكَ المَساءِ، بِلَقَبِ «نازْداك» وهُوَ أَرْفَعَ مَقامِ شَرَفٍ في البِلادِ.

رَغِبَ جَلالَتُهُ في أَنْ أَعْبُرَ المَضيقَ مُجَدَّدًا وآتِيَ بِالبَقِيَّةِ الباقِيَةِ مِنْ سُفُنِ العَدُوِّ، وكُلُّها سُفُنُ نَقْلٍ وتَموينٍ. وكانَ يَهْدِفُ إلى شَلِّ قُوَّةِ بليفوسكو نِهائيًّا حَتّى يَفْرِضَ على شَعْبِها نِظامَ كَسْرِ البَيْضِ المَسْلوقِ مِنَ الطَّرَفِ الأَصْغَرِ. لَمْ أَرْتَحْ لِطَلَبِ الإمْبَراطورِ، وأَخْبَرْتُهُ، بِكُلِّ صَراحَةٍ، أَنَّني لَمْ أَرْغَبْ في جَرِّ أُمَّةٍ حُرَّةٍ وشُجاعَةٍ إلى مِثْلِ هذا الذُّلِّ المُهينِ.

كانَ لِرَفْضي تَنْفيذَ تِلْكَ الرَّغْبَةِ أَثَرٌ سَيِّئٌ، إِذْ تَغَيَّرَتْ نَظْرَةُ الإِمْبراطورِ وبَعْضِ وُزَرائِهِ إِلَيَّ، وأَخَذوا يُناصِبونَني العَداءَ. ولَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَويلٌ حَتّى اكْتَشَفْتُ أَنَّ هُناكَ مَنْ يَكيدُ لي المُؤامَراتِ - مُتَناسِيًا ما كانَ لي مِنْ فَضْلٍ - بِمُجَرَّدِ أَنْ عارَضْتُ وُجْهَةَ نَظَرِ الإِمْبَراطورِ.

وَصَلَ، بَعْدَ ثَلاثَةِ أَسابيعَ، وَفْدٌ رَسْمِيٌّ مِنْ بليفوسكو لِتَوْقيعِ مُعاهَدَةِ سَلام. وقَدْ عَبَّرَ أَعْضاءُ الوَفْدِ عَنْ تَقْديرِ بِلادِهِمُ لِلطَّريقَةِ الَّتي أَنْجَزْتُ بِها العَمَلِيَّةَ، ورَأَوْا أَنَّني كُنْتُ شَهْمًا إِذْ تَصَرَّفْتُ بِدِقَّةٍ، مَعَ أَنَّني قادِرٌ عَلى تَحْطيمِ مَرافِئِهِمْ وَمُعَدّاتِهِمْ، وقَتْلِ الأُلوفِ مِنْهُمْ، وتَهْديمِ مُدُنِهِمْ وقُراهُمْ. ووَجَّهوا إِلَيَّ دَعْوَةً شَخْصِيَّةً مِنْ إِمْبَراطورِهِمْ لِزِيارَةِ بِلادِهِمْ حَيْثُ سَيُقيمونَ لي احْتِفالاً شَعْبِيًّا عارِمًا.

أَعْطَى رِجالُ بَلاطِ ليليبوت دَعْوَةَ التَّكْريمِ البَريئَةَ هذِهِ تَفْسيرًا خاطِئًا، واعْتَبَروا أَنَّني خائِنٌ لِوَطَنِهِمْ وإِمْبَراطورِهِمْ. وكانَتْ تِلْكَ هِيَ المَرَّةَ الأُولى الَّتي أَلْمُسُ فيها مَدى ما يَصِلُ إِلَيْهِ أَهْلُ البَلاطِ والوُزَراءُ مِنْ نِفاقٍ ورِياءٍ.

جاءَني يَوْمًا صَديقٌ مُقَرَّبٌ إِلَيَّ، وأَطْلَعَني على أُمورٍ كَثيرَةٍ أَثارَتْ قَلَقي واضْطِرابي. أَخْبَرَني أَنَّ بَعْضَ الوُزَراءِ كانوا قَلِقينَ حِيالَ الكُلْفَةِ الَّتي تَتَكَبَّدُها البِلادُ مِنْ جَرّاءِ وُجودي، وأَخَذوا يُحاوِلونَ إِيجادَ حَلٍّ بِهذِهِ المُعْضِلَةِ. وكانَتِ الإِشاعاتُ تُحاكُ حَوْلي، فَقَدْ أَخْبَرَ بَعْضُ المُغْرِضينَ وَزيرَ الخِزانَةِ أَنَّ سَيِّدَةً شَريفَةً مِنْ إِحْدى العائِلاتِ المَرْموقَةِ زارَتْني سِرًّا، وهذِهِ مَسْأَلَةٌ مُشينَةٌ جِدًّا. وقَدْ لاقَى هذا الخَبَرُ المُلَفَّقُ أُذُنًا صاغِيَةً عِنْدَ الإِمْبَراطورِ، فَأَصْبَحْتُ مَكْروهًا في أَوْساطِ البَلاطِ.

وعَمِلَ قائِدُ البَحْرِيَّةِ عَلى النَّيْلِ مِنْ سُمْعَتي، وقَدْ دَفَعَهُ حَسَدُهُ لي لِقُدْرَتي عَلى السَّيْطَرَةِ عَلى أُسْطولِ بليفوسكو، إِلى الادِّعاءِ بِأَنَّني مُتَوَرِّطٌ في



مُؤامَرَةٍ مَعَ إمْبَراطورِ بليفوسكو، واتَّهَمَني رَسْمِيًّا بِالخِيانَةِ.

أَطْلَعَني صَديقي أَيْضًا عَلى مُخْتَلِفِ الطُّرُقِ المُقْتَرَحَةِ لِلتَّخَلُّصِ مِنّي: مِنْها مَثَلًا إضْرامُ النّارِ في بَيْتي خِلالَ نَوْمي لَيْلًا، أَوْ دَسُّ السُّمِّ في طَعامي مَعَ إطْلاقِ عِشْرينَ أَلْفِ جُنْدِيٍّ سِهامَهُمُ المَغْموسَةَ بِالسُّمِّ عَلى جَميعِ أَنْحاءِ جِسْمي.

وقَدْ طَلَبَ بَعْضُ الوُزَراءِ الرَّأْفَةَ بي وعَدَمَ قَتْلي، وإنَّما الاقْتِصارُ عَلى إطْفاءِ عَيْنَيَّ، مِمّا يُضْعِفُني ويَجْعَلُني غَيْرَ ذي خَطَرٍ. ويَبْدو أَنَّ الإمْبَراطورَ لَمْ يُرِدْ مَوْتي، وأَخَذَ يَبْحَثُ عَنْ وَسائِلِ تكونُ كَفيلَةً بِشَلِّ قُدُراتي.

ثُمَّ اقْتَرَحَ وَزيرُ الخارِجِيَّةِ أَنْ يَتِمَّ إنْقاصُ كَمِّيَّةِ الطَّعامِ المُقَدَّمَةِ لي تَدْريجِيًّا إلى أَنْ أَموتَ جُوعًا. أَمّا بِالنِّسْبَةِ لِلتَّخَوُّفِ مِنْ تَأْثيرِ اهْتِراءِ جُثَّتي الضَّخْمَةِ عَلى الوَضْعِ الصِّحِّيِّ العامِّ في البِلادِ، فَقَدْ كانتْ خُطَّتُهُ تَقْضي بِأَنْ يَقومَ- بَعْدَ مَوْتي- خَمْسَةُ آلافِ مُواطِنٍ أَوْ سِتَّةُ آلافٍ بِتَقْطيعِ لَحْمي وتَجْريدِهِ



عَنِ العِظامِ، وبِحَمْلِهِ- قِطَعًا صَغيرَةً- إلى الرِّيفِ، حَيْثُ يَجْري دَفْنُهُ تَحْتَ التُّرابِ. ويَبْقى الهَيْكَلُ العَظْمِيُّ في المَدينَةِ كَنُصُبٍ لِلتّاريخِ والذِّكْرى.

بَعْدَ كُلِّ هذِهِ الأَخْبارِ المُذْهِلَةِ، أَعْلَمَني صَديقي أَنَّ ما رَسا عَلَيْهِ الرَّأْيُ أَخيرًا هُوَ تَجْويعي حَتّى المَوْتِ وإطْفاءُ نُورِ عَيْنَيَّ. وقَدِ اضْطُرَّ الإمْبراطورُ إلى المُوافَقَةِ عَلى ذلِكَ، وأَمَرَ عِشْرينَ طَبيبًا بِالإشْرافِ عَلى عَمَلِيَّةِ إعْمائي الَّتي سَتُنَفَّذُ بِتَوْجيهِ سِهامٍ حادَّةٍ جِدًّا نَحْوَ عَيْنَيَّ.

صَمَّمْتُ عَلى تَجَنُّبِ عَواقِبِ مِثْلِ هذِهِ المُحاوَلاتِ، لِذلِكَ تَوَجَّهْتُ، بَعْدَ أَيّامٍ، نَحْوَ الشّاطِئِ، واسْتَوْلَيْتُ عَلى أَكْبَرِ سَفينَةٍ حَرْبِيَّةٍ، وعَبَرْتُ المَضيقَ نَحْوَ بليفوسكو. فَاسْتَقْبَلَني الإمْبراطورُ والنّاسُ بِالتَّرْحابِ وأَكْرَموا وِفادَتي.

بَعْدَ ثَلاثَةِ أَيّامٍ مِنْ وُصولي، شاهَدْتُ قُبالَةَ الشّاطِئِ الشَّمالِيِّ الشَّرْقِيِّ، شَيْئًا كَأَنَّهُ قارِبٌ مَقْلوبٌ رَأْسًا عَلى عَقِبٍ.

سَبَحْتُ نَحْوَهُ لأَتَفَحَّصَهُ، فَإذا قارِبُ نَجاةٍ حَقيقِيٌّ أوروبِّيُّ الصُّنْعِ والطِّرازِ.

أَرَدْتُ أَنْ أَجُرَّهُ إلى الشّاطِئِ، فَأَقْنَعْتُ الإِمْبَراطورَ بِالسَّماحِ لي بِالاسْتِعانَةِ بِعِشْرينَ سَفينَةً مِنْ سُفُنِهِ وثَلاثَةِ آلافِ بَحّارٍ، وبِتَزْويدي بِكَمِّيَّةٍ كَبيرَةٍ مِنَ الحِبالِ والأَسْلاكِ. أَبْحَرَتِ السُّفُنُ قُرْبي، وتَمَكَّنّا- بِصُعوبَةٍ- مِنْ رَبْطِ القارِبِ إلى السُّفُنِ بِواسِطَةِ الحِبالِ، وجَرِّهِ نَحْوَ الشّاطِئِ.

عَمِلَ مَعي مِئاتٌ مِنَ النَّجّارينَ وبَنّائي السُّفُنِ حَتّى أَصْبَحَ المَرْكَبُ صالِحًا لِلملاحَةِ- ثُمَّ قَطَعْتُ بِضْعَةَ أَشْجارٍ طَويلَةٍ اسْتَخْدَمْتُها في صُنْعِ المَجاديفِ والصَّواري.

في أَثْناءِ ذلِكَ، بَعَثَ إمْبَراطورُ ليليبوت بِرَسائِلَ عاجِلَةٍ إلى بليفوسكو يُطالِبُ فيها لِإِرْسالي مُقَيَّدًا إلى ليليبوت لأُحاكَمَ بِتُهْمَةِ الخِيانَةِ.

رَفَضَ صَديقي إمْبَراطورُ بليفوسكو الاسْتِجابَةَ لِهذا الطَّلَبِ، فَهُوَ يُثَمِّنُ كَثيرًا الدَّوْرَ الإيجابِيَّ الّذي لَعِبْتُهُ في ضَمانِ مُعاهَدَةِ سَلامٍ مُشَرِّفَةٍ بِالنِّسْبَةِ لِبِلادِهِ.

أَخَذَ يُفَكِّرُ في المَسْأَلَةِ ثَلاثَةَ أَيّامٍ، ثُمَّ أَجابَ إمْبراطورَ ليليبوت مُبْلِغًا إيّاهُ أَنَّهُ قَدْ وَصَلَ إلى مِياهِ بِلادِهِ قارِبٌ كَبيرٌ، وأَنَّني سَوْفَ أُغادِرُ، بَعْدَ أَيّامٍ، إلى بِلادي البَعيدَةِ، وَهكَذا تَتَحَرَّرُ الدَّوْلَتانِ مِنْ وُجودي المُحْرِجِ والمُسَبِّبِ لِلمَشاكِلِ بَيْنَهُما.

وقَدْ دَعاني إمْبَراطور بليفوسكو، سِرًّا، إلى البَقاءِ في بِلادِهِ ما شِئْتُ. لكِنّي كُنْتُ قَدْ ضِقْتُ ذَرْعًا بِتَقَلُّباتِ أَهْلِ السِّياسَةِ وما يَتَّصِفونَ بِهِ مِنْ خِداعٍ ورِياءٍ ونُكْرانِ جَميلٍ، فَقَرَّرْتُ مُغادَرَةَ تِلْكَ البِلادِ في الحالِ.

خَزَنْتُ في القارِبِ مِنَ الذَّبائِحِ مِائَةَ ثَوْرٍ وَثَلاثَمِائَةِ خَروفٍ، بالإضافَةِ إلى كَمِّيَّةٍ وافِرَةٍ مِنَ الخُبْزِ وما يَكْفي مِنَ الماءِ. ووَضَعْتُ في القارِبِ كَذلِكَ رِزَمًا مِنَ القَشِّ والتِّبْنِ، وأَخَذْتُ مَعي سِتًّا مِنْ أَبْقارِهِمْ وثَوْرَيْنِ وعَدَدًا مِنَ الخِرافِ والنِّعاجِ. وَذلِكَ بِهَدَفِ تَرْبِيَةِ هذِهِ الحَيَواناتِ الصَّغيرَةِ وتَكاثُرِها في إِنْجِلْتِرا حَيْثُ سَتَكونُ أَشْياءَ فَريدَةً لافِتَةً.

غادَرْتُ بليفوسكو في سبتمبر مِنْ عام ١٧٠١. وبَعْدَ بِضْعَةِ أَيّامٍ، مَرَرْتُ قُرْبَ سَفينَةٍ إِنْجِليزِيَّةٍ عائِدَةٍ مِنَ اليابانِ. وَقَدْ أُصْعِدْتُ إلى مَتْنِها



حَيْثُ رَحَّبَ بي القُبْطانُ جون بِديل، وهُوَ مِنْ مَدينَةِ ديتْفورْد.

عِنْدَما أَخْبَرْتُ القُبطانَ وبَحّارَتَهُ بِمُغامَراتي ظَنّوا أَنَّني مَجْنونٌ أَهْذي، ولَمْ يُصَدِّقوني إلّا بَعْدَ أَنْ أَرَيْتُهُمُ الماشِيَةَ ذاتَ الحَجْمِ الصَّغيرِ والأَشْياءَ الأُخْرى الَّتي حَمَلْتُها مَعي.

مَرَّتِ الرِّحْلَةُ بِسَلامٍ إلى أَنْ وَصَلْنا إلى إِنْجِلْتِرا في أبريل عامَ ١٧٠٢. وقَدْ غَمَرَني فَرَحٌ لا يُوصَفُ بِعَوْدَتي إلى زَوْجَتي وأَوْلادي. وأَمْضَيْتُ في بَيْتي أَكْثَرَ مِنْ شَهْرَيْنِ هانِئًا قَريرَ العَيْنِ. ولكِنَّ الشَّوْقَ إلى السَّفَرِ والمُغامَراتِ قادَني إلى التَّفْكيرِ بالقِيامِ بِرِحْلَةٍ إلى الشَّرْقِ الأَقْصى.

كانَ أَوْلادي يَنْعَمونَ بالرّاحَةِ والهَناءِ، ويُحْرِزونَ نَجاحًا مُتَواصِلاً في دِراسَتِهِمْ. أَمّا زَوْجَتي فَقَدِ اسْتَقَرَّتْ هانِئَةً في بَيْتِنا في رِدْريف مُحاطَةً بِالعَديدِ مِنَ الأَصْدِقاءِ. لِذلِكَ كُنْتُ مُرْتاحَ البالِ مُطْمَئِنًّا إلى أُمورِ عائِلَتي عِنْدَما انْضَمَمْتُ إلى سَفينَةٍ تِجارِيَّةٍ، حُمولَتُها ثَلاثُمِائَةِ طُنٍّ وتُدْعى «المُغامِرَ». وعَلى مَتْنِها جاءَ القُبْطانُ جون نيكولاس- وهُوَ مِنْ ليڤربول- ورَحَّبَ بي بِصِفَتي طَبيبَ سَفينَتِهِ.

كانَتْ رِحْلَتُنا إلى رَأْسِ الرَّجاءِ الصّالِحِ هادِئَةً ومِنْ دونِ صُعوباتٍ تُذْكَرُ. مَكَثْنا هُناكَ عِدَّةَ أَشْهُرٍ بِانْتِظارِ إِتْمامِ إِصْلاحاتٍ في السَّفينَةِ وشِفاءِ قُبطانِنا مِنْ حُمّى قاسِيَةٍ أصابَتْهُ ثُمَّ أَكْمَلْنا رِحْلَتَنا في شَهْرِ مارس، واجْتَزْنا مَضائِقَ مَدَغَشْقَر، فَواجَهَتْنا رِياحٌ قَوِيَّةٌ حَمَلَتْنا حَوالَي خَمْسِمِائَةِ فَرْسَخٍ إلى الشَّمالِ الشَّرْقِيِّ.

في السّادِسَ عَشَرَ مِنْ يونيو عامَ ١٧٠٣، سَمِعْنا صَوْتَ بَحّارٍ يَصْرُخُ مِنْ قِمَّةِ الصّاري الرَّئيسِيِّ: «اليابِسَةُ.. اليابِسَةُ!» نَظَرْنا فَرَأَيْنا الأَرْضَ، ولَمْ نَعْرِفْ ما إذا كانَتْ جَزيرَةً كَبيرَةً أَمْ قارَّةً.



رَسَتِ السَّفينَةُ بَعيدًا عَنِ الشّاطِئِ، وأَرْسَلَ القُبْطانُ مَرْكَبًا كَبيرًا، وعَلى مَتْنِهِ فِرْقَةٌ مِنَ الرِّجالِ المُسَلَّحينَ، لِلبَحْثِ عَنْ ماءٍ عَذْبٍ ومُحاوَلَةِ مَعْرِفَةِ اسْمِ تِلْكَ البِلادِ.

سُمِحَ لي بِمُرافَقَةِ الرِّجالِ. وما إنْ وَصَلْنا إلى الشّاطِئِ حَتّى أَخَذْتُ أَتَجَوَّلُ بَعيدًا عَنْ رِفاقي مُحاوِلًا اسْتِكْشافَ مَعالِمِ تِلْكَ الأَرْضِ. بَعْدَ دَقائِقَ،

عُدْتُ نَحْوَ الشّاطِئِ. وقَدْ صُدِمْتُ إذْ رَأَيْتُ رِفاقي البَحّارَةَ في المَرْكَبِ وَسَطَ الماءِ، وهُمْ يُجَدِّفُونَ بِسُرْعَةٍ فائِقَةٍ مُتَّجِهينَ نَحْوَ السَّفينَةِ. وكانَ وَراءَهُمْ شَكْلٌ بَشَرِيٌّ ضَخْمٌ هائِلٌ. كانَ عِمْلاقًا حَقيقِيًّا يَخُوضُ في الماءِ مُحاوِلًا اللَّحاقَ بِهِمْ.

كانَ البَحّارَةُ مَحْظوظينَ إذِ اسْتَطاعوا أَنْ يَسْبِقوا المارِدَ الجَبّارَ، وبِخاصَّةٍ عِنْدَما أَعاقَ تَقَدُّمَهُ وُجودُ صُخورٍ حادَّةٍ في قاعِ البَحْرِ سَبَّبَتْ لَهُ جِراحًا في قَدَمَيْهِ. فَتَوَقَّفَ عَنْ مُلاحَقَتِهِمْ، وعادَ أَدْراجَهُ نَحْوَ الشّاطِئِ.

لَمْ أَنْتَظِرْ وُصولَ ذلِكَ الوَحْشِ الرهيبِ إلى اليابِسَةِ، بَلْ أَخَذْتُ أَعْدو مُحاوِلًا الابْتِعادَ قَدْرَ المُسْتَطاعِ. أَمْضَيْتُ أَكْثَرَ مِنْ ساعَةٍ حَتّى أَجْتازَ حَقْلًا واحِدًا، بَدا لي كَأَنَّهُ بَرِّيَّةٌ شاسِعَةٌ مُحاطَةٌ بِسِياجٍ يَرْتَفِعُ أَكْثَرَ مِنْ سِتَّةِ أَمْتارٍ.

لَدى وُصولي إلى آخِرِ الحَقْلِ رَأَيْتُ سُلَّمًا هائِلًا لِعُبورِ السِّياجِ، ولكِنَّني لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَصْعَدَ عَلَيْهِ إذْ كانَتْ كُلُّ دَرَجَةٍ مِنْ دَرَجاتِهِ تَعْلو حَوالَي مِتْرَيْنِ عَنِ الأُخْرى. فَعَمَدْتُ إلى الزَّحْفِ عَلى الأَرْضِ بَيْنَ سُوقِ الأَعْشابِ الضَّخْمَةِ.



أَصْبَحْتُ في الحَقْلِ الثّاني، فَإِذا بي أَرى مارِدًا آخَرَ، ضَخْمًا كَالّذي رَأَيْتُهُ يُخَوِّضُ في ماءِ البَحْرِ. كانَ يَتَّجِهُ نَحْوَ سُلَّمِ السِّياجِ، وقَدْ بَدا شامِخًا كَأَنَّهُ بُرْجٌ فَوْقَ قَلْعَةٍ. وكانَ طُولُ خُطْوَتِهِ تِسْعَةَ أَمْتارٍ تَقْريبًا.

تَمَلَّكَني الذُّعْرُ، فَاخْتَبَأْتُ بَيْنَ الأَعْشابِ. ثُمَّ سَمِعْتُهُ يُنادي رِفاقًا لَهُ بِصَوْتٍ أَصَمَّ أُذُنَيَّ ولَمْ أَسْمَعْ لَهُ مَثيلاً مِنْ قَبْلُ، فَجاءَ بِضْعَةُ عَمالِقَةٍ مِثْلِهِ يَحْملونَ بِأَيْديهِمْ مَناجِلَ ضَخْمَةً، الواحِدُ مِنْها يُوازي سِتَّةَ أَضْعافِ المِنْجَلِ المَعْروفِ. يَبْدو أَنَّهُمْ كانوا عُمّالًا زِراعِيِّينَ، إِذْ سَرْعانَ ما بَدَأوا يَحْصُدونَ الذُّرَةَ مِنَ الحَقْلِ الّذي كُنْتُ فيهِ.





عَمِلَ العَمالِقَةُ بِكَدٍّ ونَشاطٍ. وسَرْعانَ ما اقْتَرَبَ أَحَدُهُمْ مِنّي وكانَ يَبْعُدُ عَنّي مَسافَةَ خُطْوَةٍ واحِدَةٍ مِنْ خُطُواتِهِ، لَمْ أَجِدْ مُتَّسَعًا لِلخَوْفِ إِذْ قَدَّرْتُ أَنَّهُ إِمّا أَنْ يَقْطَعَني نِصْفَيْنِ بِواسِطَةِ مِنْجَلِهِ، وإِمّا أَنْ يَسْحَقَني بِحِذائِهِ مِنْ حَيْثُ لا يَدْري. فَبَدَأْتُ بِالصُّراخِ والصِّياحِ بِأَعْلى صَوْتي.

تَوَقَّفَ الرَّجُلُ الجَبّارُ، وأَخَذَ يَنْظُرُ حَوْلَهُ، فَرَآني أَرْتَجِفُ خَوْفًا بَيْنَ سُوقِ نَباتاتِ الذُّرةِ. رَفَعَني بِحَذَرٍ بَيْنَ إِبْهامِهِ وسَبّابَتِهِ، وكَأَنَّهُ يُمْسِكُ حَشَرَةً. ثُمَّ وَضَعَني أَمامَ عَيْنَيْهِ لِتَفَحُّصي عَنْ كَثَبٍ، فَضَمَمْتُ يَدَيَّ في حَرَكَةٍ تَدُلُّ عَلى تَوَسُّلِ الرَّأْفَةِ، وتَكَلَّمْتُ بِلَهْجَةٍ لَطيفَةٍ رَقيقَةٍ.

بَدا آسِري العِمْلاقُ مَزْهُوًّا بِهَذِهِ اللُّقْيَةِ الغَريبَةِ، فَوَضَعَني، بِرِفْقٍ، في مِنْديلِهِ، ورَكَضَ لِيُرِيَني لِسَيِّدِهِ.

أَخْرَجَني سَيِّدُهُ المُزارِعُ سالِمًا مِنَ المِنْديلِ، ووَضَعَني عَلى الأَرْضِ.

فَاسْتَجْمَعْتُ قُوايَ وأَخَذْتُ أَتَمَشَّى جيئَةً وذَهابًا لأُظْهِرَ لَهُ أَنْ لا نِيَّةَ عِنْدي لِلهَرَبِ.

تَحَلَّقَ العَمالِقَةِ الآخَرونَ حَوْلي وأَخَذوا يُراقِبونَني. رَفَعْتُ قُبَّعَتي تَحِيَّةً لَهُمْ وانْحَنَيْتُ بِكُلِّ أَدَبٍ، وتَوَجَّهْتُ إِلَيْهِمْ بِالحَديثِ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ.

وكانَ هذا كَفيلًا بِإِقْناعِ المُزارِعِ بِأَنّي مَخْلوقٌ صَغيرٌ عاقِلٌ غَيْرُ مُؤْذٍ، فَخاطَبَني بِصَوتٍ هَدَرَ في أُذُنَيَّ، كَأَنَّهُ صَوْتُ ساقِيَةِ ماءٍ. ولكِنّي لَمْ أَفْهَمْ شَيْئًا مِمّا قالَهُ. ثُمَّ وَضَعَ مِنْديلَهِ على الأَرْضِ لأَقِفَ عَلَيْهِ. ولَمّا فَعَلْتُ ذلِكَ، لَفَّني بِهِ بِرِفْقٍ، وحَمَلَني إِلى بَيْتِهِ.

لَمّا رَأَتْني زَوْجَتُهُ صَرَخَتْ هَلَعًا، كَما تَفْعَلُ النِّساءُ في عالَمِنا لَدى رُؤْيَتِهِنَّ عَنْكَبوتًا أَوْ حَشَرَةً صَغيرَةً. ثُمَّ زالَتْ مَخاوِفُها تَدْريجًا. وأَخَذَتْ تَأْنَسُ بي.

عِنْدَ انْتِصافِ النَّهارِ، أَعَدَّ أَحَدُ الخَدَمِ المائِدَةَ. وكانَ هُناكَ طَبَقٌ كَبيرٌ مِنَ اللَّحْمِ يَبْلُغُ قُطْرُهُ حوالَي سَبْعَةِ أَمْتارٍ.

وَضَعَني المُزارِعُ أَمامَهُ عَلى الطّاوِلَةِ. وقَدْ خِفْتُ أَوَّلَ الأَمْرِ لأَنَّ ارْتِفاعَ الطّاوِلَةِ عَنِ الأَرْضِ يَبْلُغُ حَوالَي عَشَرَةِ أَمْتارٍ، أَيْ كَعُلُوِّ مَنْزِلٍ في إِنْجِلْترا.

أَخَذَتْ زَوْجَتُهُ تُعامِلُني بِلُطْفٍ، فَقَطَعَتْ قِطْعَةَ لَحْمٍ صَغيرَةً ووَضَعَتْها، مَعَ فُتاتِ خُبْزٍ، عَلى صَحْنٍ مَوْضوعٍ أَمامي. شَكَرْتُها بِانْحِناءَةٍ، ثُمَّ أَخَذْتُ سِكّيني وشَوْكَتي وأَكَلْتُ هَنيًا. وقَدْ سُرُّوا جَميعًا بِمُراقَبَتي، وأَنا أَقومُ بِذلِكَ.

أَشارَ إِلَيَّ سَيِّدي بِأَنْ أَتَوَجَّهَ نَحْوَ صَحْنِهِ. وفيما كُنْتُ أَسيرُ عَلى غِطاءِ الطّاوِلَةِ تَعَثَّرَتْ رِجْلي بِكِسْرَةِ خُبْزٍ، فَوَقَعْتُ عَلى وَجْهي، ولكِنْ لَمْ أُصَبْ بِأَذًى. رَأَيْتُ في وُجوهِ الحاضِرينَ تَعابيرَ تَدُلُّ عَلى قَلَقٍ عَلَيَّ، فَوَقَفْتُ حالًا ونَفَضْتُ قُبَّعَتي وحَيَّيْتُهُمْ لأُطَمْئِنَهُمْ إِلى عَدَمِ إِصابَتي.

كانَ الابْنُ الأَصْغَرُ- وهُوَ في العاشِرَةِ مِنْ عُمْرِهِ- جالِسًا مَعَهُمْ إلى المائِدَةِ، فَالْتَقَطَني بِرِجْلي ورَفَعَني عالِيًا، فَخَشيتُ الوُقوعَ مِنْ هذا العُلُوِّ.

ولكِنَّ والِدَهُ أَخَذَني مِنْهُ، وسَدَّدَ لَهُ لَكْمَةً قَوِيَّةً على أُذُنِهِ اليُسْرى كانَتْ كافِيَةً لِدَحْرِ فِرْقَةٍ مِنَ الخَيّالَةِ في أَيِّ جَيْشٍ أوروبِّيٍّ.

كُنْتُ أَعْلَمُ حَرَكاتِ الصِّبْيانِ وأَلاعيبَهُمْ ومُضايَقاتِهِمْ لِلمَخْلوقاتِ الصَّغيرَةِ، فَجَثَوْتُ على رُكْبَتَيَّ وأَخَذْتُ أَقومُ بِإشاراتٍ وإيماءاتٍ لِلتَّعْبيرِ عَنْ طَلَبِ العَفْوِ عَنِ الصَّبِيِّ. وقَدْ وافَقَ والِدُهُ على طَلَبي ولَمْ يُعاوِدِ الشَّقِيُّ إيذائي بَعْدَ ذلِكَ.

خِلالَ تَناوُلِ الطَّعامِ، قَفَزَتْ قِطَّةُ سَيِّدَتي إلى حِضْنِها، وأَخَذَتْ تُخَرْخِرُ بِهَناءٍ كَما تَفْعَلُ القِطَطُ عادَةً. ولكِنَّ صَوْتَ خَرْخَرَتِها كانَ- بِالنِّسْبَةِ إلَيَّ- كَصَوْتِ عَشَراتِ الآلاتِ وهِيَ تَعْمَلُ مَعًا.

كانَ حَجْمُ القِطَّةِ كَأَنَّهُ مَجْموعُ ثَلاثَةِ ثيرانٍ مِنَ الَّتي نَعْرِفُها، فَأَرْعَبَني مَنْظَرُها. ولكِنّي تَذَكَّرْتُ أَنَّ إظْهارَ الخَوْفِ أَمامَ الحَيَواناتِ الغَريبَةِ قَدْ يَكونُ مُؤْذِيًا، فَأَخَذْتُ أَسيرُ بِشَجاعَةٍ أَمامَ تِلْكَ القِطَّةِ العِمْلاقَةِ، وسُرِرْتُ حينَ وَجَدْتُ أَنَّها لَمْ تَنْزَعِجْ مِنْ وُجودي.

كانَ لِسَيِّدَتي ابْنَةٌ صَغيرَةٌ لَطيفَةٌ في التّاسِعَةِ مِنْ عُمْرِها. وقَدْ أَحَبَّتْني الفَتاةُ كَثيرًا، وسَرْعانَ ما أَصْبَحْنا رَفيقَيْنِ. وقَدْ قامَتْ- بِمُساعَدَةِ أُمِّها- بِصُنْعِ سَريرٍ صَغيرٍ لأَنامَ فيهِ. وكانَ سَريري يُوضَعُ في دُرْجِ إحْدى الدَّواليبِ.

أَطْلَقْتُ على رَفيقَتي الصَّغيرَةِ اسْمَ «غلامْدالكْلِتْش» أَيِ المُرَبِّيَةِ الصَّغيرَةِ. وكانَتْ تَرْعى أُموري فَتُشْرِفُ على طَعامي وتَهْتَمُّ بِثِيابي، وتَحْرِصُ عَلى سَلامَتي في كُلِّ لَحْظَةٍ.

وسَرْعانَ ما انْتَشَرَ خَبَرُ عُثورِ المُزارِعِ عَلَيَّ. وقَدِ اقْتَنَعَ سَيِّدي بِاقْتِراحِ

يَقْضي بِالتَّجَوُّلِ بي في أَنْحاءِ البِلادِ وعَرْضي لِلمُشاهَدَةِ وتَقاضي رَسْمِ دُخولٍ مِنْ كُلِّ مَنْ يَوَدُّ مُشاهَدَةَ هذا المَنْظَرِ الفَريدِ. وقَدْ أَزْعَجَتْ هذِهِ الخُطَّةُ صَديقَتي العَزيزَةَ غلامْدالكْلِتْش، فَأَصَرَّتْ على أَنْ يَسْمَحَ لَها والِدُها بِمُرافَقَتي لِلسَّهَرِ عَلى راحَتي خِلالَ هذِهِ الجَوْلاتِ.

اِنْطَلَقَ سَيِّدي عَلى ظَهْرِ جَوادِهِ بادِئًا جَوْلَتَهُ عَلى المُدُنِ والقُرى. وقَدْ جَلَسَتْ غلامْدالكْلِتْش عَلى وِسادَةٍ خاصَّةٍ عَلى السَّرْجِ وَراءَهُ وهِيَ تَحْمِلُ الصُّنْدوقَ الّذي صُنِعَ خِصّيصًا لأَكونَ فيهِ. كانَ الصُّنْدوقُ واسِعًا بِالنِّسْبَةِ لي، وفيهِ سَريري وأَمْتِعَتي الشَّخْصِيَّةُ، وفي جَوانِبِهِ ثُقوبٌ لِدُخولِ الهَواءِ. أَمّا



حيطانُهُ مِنَ الدّاخِلِ فكانَتْ مُبَطَّنَةً.

وبِالطَّبْعِ وَجَدْتُ هذِهِ الطَّريقَةَ في التَّنَقُّلِ مُتْعِبَةً جِدًّا، فَخُطْوَةُ الحِصانِ كانَتْ تَفوقُ اثْنَيْ عَشَرَ مِتْرًا، وكانَ يَقْفِزُ عالِيًا. فَكُنْتُ كَأَنَّني في سَفينَةٍ تَعْلو وتَهْبِطُ عَلى أَمْواجٍ عاصِفَةٍ عاتِيَةٍ.

لَمّا وَصَلْنا إلى أَوَّلِ مَدينَةٍ في جَوْلَتِنا كُنْتُ أُعاني مِنَ الصُّداعِ والدُّوارِ. لكِنَّ سَيِّدي لَمْ يُضِعْ وَقْتًا، فَسارَعَ إلى الإعْلانِ عَنْ وُجودي في المَدينَةِ واسْمِ الفُنْدُقِ الّذي سَأُعْرَضُ فيهِ.

وُضِعْتُ فَوْقَ طاوِلَةٍ، تَبْلُغُ مِساحَتُها حَوالَي ثَلاثينَ مِتْرًا مُرَبَّعًا، بِأَحَدِ الفَنادِقِ. ووَقَفَتْ مُرَبِّيَتي الصَّغيرَةُ غلامْدالكْلِتْش بِإزائي عَلى كُرْسِيٍّ خَفيضٍ قُرْبَ الطّاوِلَةِ لِتَحْرُسَني، فيما كانَ المُشاهِدونَ الفُضوليّونَ يَتَحَلَّقونَ حَوْلَ الطّاوِلَةِ في مَجْموعاتٍ مُتَلاحِقَةٍ مِنْ ثَلاثينَ شَخْصًا في كُلِّ عَرْضٍ.

كانَ العَرْضُ الّذي أَقومُ بِهِ كَما يَلي: أَمْشي عَلى الطّاوِلَةِ قَليلاً، ثُمَّ أُحَيّي جُمْهوري وأَقولُ بِأَعْلى صَوْتي بِضْعَ كَلِماتٍ كُنْتُ قَدْ تَعَلَّمْتُها مِنْ رَفيقَتي الصَّغيرَةِ. ثُمَّ أَشْرَبُ نَخْبَ الحاضِرينَ مِنْ كُشْتُبانٍ مِنَ الشَّرابِ. وبَعْدَ ذلِكَ أَقومُ بِسَحْبِ سَيْفي والتَّلويحِ بِهِ.

وبِالرَّغْمِ مِنْ كُلِّ الاحْتِياطاتِ، صَوَّبَ صَبِيٌّ شَقِيٌّ حَبَّةَ بُنْدُقٍ نَحْوَ رَأْسي، ولكِنَّها لَمْ تُصِبْني لِحُسْنِ الحَظِّ، لأَنَّها كانَتْ كَفيلَةً بِتَحْطيمِ رَأْسي كَما تَفْعَلُ قَذيفَةُ مِدْفَعٍ. وقَدْ تَمَّ ضَرْبُ الوَلَدِ وإِخْراجُهُ مِنَ الغُرْفَةِ.

رَأَى سَيِّدي مَدى الرِّبْحِ الّذي يَجْنيهِ مِنْ هذِهِ العُروضِ، فَقَرَّرَ تَمْديدَ جَوْلَتِهِ في البِلادِ. وهكذا انْطَلَقْنا في شَهْرِ أغسطس، مُتَوَجِّهينَ إلى العاصِمَةِ الّتي تَقَعُ في قَلْبِ البِلادِ، عَلى مَسافَةِ حوالَي أَرْبَعَةِ آلافٍ وثَمانِمِائَةِ كيلومِتْرٍ.



وَصَلْنا في شَهْرِ أكتوبر إلى العاصِمَةِ حَيْثُ أَقَمْنا في الشّارِعِ الرَّئيسِ، في مَكانٍ قَريبٍ مِنَ القَصْرِ المَلَكِيِّ.

اِسْتَأْجَرَ سَيِّدي غُرْفَةً كَبيرَةً، عَرْضُها حَوالَي مِائَةِ مِتْرٍ، ووَضَعَ فيها طاوِلَةً مُسْتَديرَةً يَبْلُغُ قُطْرُها عِشْرينَ مِتْرًا تَقْريبًا، وكانَ عِنْدَ مُحيطِها حاجِزٌ لِيَقِيَني مِنَ الوُقوعِ. وقَدْ عُرِضْتُ عَلى تِلْكَ الطاوِلَةِ عَشْرَ مَرّاتٍ يَوْمِيًّا.

في هذِهِ الأَثْناءِ، كُنْتُ أُواصِلُ تَلَقِّيَ الدُّروسِ في اللُّغَةِ عَلى يَدِ مُرَبِّيَتي الصَّغيرَةِ. وسَرْعانَ ما بَدَأْتُ أَقْرَأُ لُغَتَهُمْ وأَفْهَمُها بِشَكْلٍ جَيِّدٍ.

كانَتْ هذِهِ العُروضُ اليَوْمِيَّةُ مُتْعِبَةً لي، وبَدَأَتْ تُؤَثِّرُ عَلى صِحَّتي، وأَصْبَحْتُ هَزيلَ الجِسْمِ.

طَلَبَتِ المَلِكَةُ يَوْمًا إحْضاري إلى القَصْرِ لِيَراني أَوْلادُ الأُسْرَةِ المَلَكِيَّةِ. وقَدْ سُرّوا جَميعًا لَدى رُؤْيَتي وأَنا أَسيرُ أَمامَهُمْ وأُحَيّيهِمْ بِالسَّيْفِ. ثُمَّ قَبَّلْتُ طَرَفَ إِصْبَعِ الأَميرَةِ الصُّغْرى.



وقَدْ فُوجِئْتُ بِأَنَّ المَلِكَةِ سَأَلَتْني إذا كُنْتُ أَوَدُّ العَيْشَ في القَصْرِ المَلَكِي. فَأَجَبْتُ بِأَنَّ ذَلِكَ يُشَرِّفُني، ولكِنّي كُنْتُ عَبْدًا لِسَيِّدي المُزارِعِ، فَإِذا أَعْتَقَني يَسُرُّني أَنْ أَكونَ تابِعًا لِلمَلِكَةِ.

كانَ سَيِّدي ذَكِيًّا، وقَدْ لاحَظَ تَدَهْوُرَ صِحَّتي وافْتَرَضَ أَنَّ ضَعْفي سَيَزْدادُ تَدْريجِيًّا ويُؤَدّي بي إِلى المَوْتِ. لِذَلِكَ وافَقَ عَلى بَيْعي بِمَبْلَغٍ كَبيرٍ مِنَ المالِ. وسُرِرْتُ عِنْدَما وافَقَتِ المَلِكَةُ عَلى شَرْطِ بَقاءِ غلامْدالكْلِتْش مَعي في القَصْرِ كَواحِدَةٍ مِنْ سَيِّداتِهِ.

ثُمَّ وَضَعَتْني المَلِكَةُ في يَدِها وأَخَذَتْني إِلى المَلِكِ لِتُقَدِّمَني لَهُ كَأَحَدِ رَعاياهُ. كانَ المَلِكُ رَجُلاً ذَكِيًّا عالِمًا بِالفَلْسَفَةِ والرِّياضِيّاتِ، ومَعَ ذَلِكَ شَكَّ في كَوْني مَخْلوقًا حَيًّا، واعْتَقَدَ أَنَّني آلَةٌ صَغيرَةٌ فائِقَةُ الصُّنْعِ. وحَتّى عِنْدَما أَخَذْتُ أَتَحَرَّكُ وأَتَحَدَّثُ ظَلَّ عَلى شَكِّهِ، لِذَلِكَ أَرْسَلَ في طَلَبِ ثَلاثَةٍ مِنْ كِبارِ عُلَمائِهِ لِيَدْرُسوا وَضْعي بِالتَّفْصيلِ.



راقَبَني العُلَماءُ الثَّلاثَةُ، وأَخَذوا وَزْني وطولي، وتَفَحَّصوني بِإمْعانٍ. وتَوَصَّلوا- بَعْدَ مُناقَشاتٍ طَويلَةٍ-إلى الإجْماعِ عَلى أَنَّني مِثالٌ لِما يُسَمّيهِ فَلاسِفَتُنا في أوروبّا «فَلْتَةً» مِنْ فَلَتاتِ الطَّبيعَةِ.

وقَدْ تَعَجَّبْتُ لِلُجوءِ هؤلاءِ الجَهابِذَةِ الأَجِلّاءِ إلى اسْتِعْمالِ عِبارَةٍ مُشابِهَةٍ لِتِلْكَ الّتي يَسْتَعْمِلُها فَلاسِفَتُنا في إنْجِلْترا لِشَرْحِ ما لا يَفْهَمونَ حَقيقَتَهُ.

ويَبْدو أَنَّ المَلِكَ أَعادَ النَّظَرَ بِرَأْيِهِ، ولَمْ يَقْتَنِعْ بِما تَوَصَّلَ إلَيْهِ عُلَماؤُهُ، وأَقَرَّ بِأَنَّني مَخْلوقٌ حَيٌّ صَغيرٌ، فَأَصْدَرَ أَوامِرَهُ الصّارِمَةَ بِتَوْفيرِ الحِمايَةِ والرِّعايَةِ التّامَّةِ لي.

لِذلِكَ بُدِئَ بِصُنْعِ صُنْدوقٍ جَديدٍ لِأُقيمَ فيهِ، بِحَسَبِ المُواصَفاتِ الّتي أَضَعُها أَنا وغلامْدالكْلِتْش. وقَدْ قامَ العُمّالُ المَهَرَةُ، في أَقَلَّ مِنْ ثَلاثَةِ أسابيعَ، بِإنْجازِ غُرْفَةٍ خَشَبِيَّةٍ رائِعَةٍ، مِساحَتُها حوالَي خَمْسَةٍ وعِشْرينَ مِتْرًا مُرَبَّعًا وارْتِفاعُها حوالَي أَرْبَعَةِ أَمْتارٍ. وهِيَ ذاتُ نَوافِذَ وبابٍ وتَحْتَوي دُولابًا.

كانَ السَّقْفُ عِبارَةً عَنْ لَوْحٍ مُثْبَتٍ بِمَفاصِلَ مِنْ جِهَةٍ واحِدَةٍ لِيُمْكِنَ رَفْعُهُ عِنْدَ إنْزالِ سَريري الجَديدِ المُريحِ إلى داخِلِ الغُرْفَةِ.

جُهِّزَتِ الغُرْفَةُ أَيْضًا بِطاوِلاتٍ وكَراسِيَّ جَديدَةٍ مَصْنوعَةٍ مِنْ مادَّةٍ تُشْبِهُ العاجَ. وكانَتْ جُدْرانُ الغُرْفَةِ وأَرْضُها مُبَطَّنَةً بِقُماشٍ مُنَجَّدٍ، لِضَمانِ سَلامَتي عِنْدَ السَّفَرِ أَوْ حَمْلِ الصُّنْدوقِ. بَعْدَ ذلِكَ أُعْطيتُ ثِيابًا مُفَصَّلَةً مِنْ أَجْوَدِ أَنْواعِ الحَريرِ.

كُنْتُ أَتَناوَلُ طَعامي دائِمًا عَلى ظَهْرِ المائِدَةِ الكُبْرى، قُرْبَ المَلِكَةِ. وقَدْ صُنِعَتْ مَجْموعَةٌ مِنَ الصُّحونِ الفِضِّيَّةِ خِصّيصًا لي. وكانَتْ جَلالَتُها تُسَرُّ لَدى رُؤْيَتي أُعْمِلُ سِكّيني وشَوْكَتي في قِطَعِ الطَّعامِ الصَّغيرَةِ الّتي تُخَصِّصُها لي.



عُرِفَ عِنَ المَلِكَةِ أَنَّ شَهِيَّتَها لِلطَّعامِ مَحْدودَةٌ، وأَنَّها لا تَأْكُلُ كَثيرًا ومَعَ هذا، لاحَظْتُ أَنَّ ما تَبْتَلِعُهُ بِلُقْمَةٍ واحِدَةٍ يُوازي ما يَأْكُلُهُ اثْنا عَشَرَ مُزارِعًا إِنْجِليزِيًّا في وَقْعَةٍ كامِلَةٍ.

كانَتْ تَسْحَقُ، بَيْنَ أَسْنانِها، جَناحَ عُصْفورَةٍ بِلَحْمِهِ وعَظْمِهِ، مَعَ أَنَّهُ يَبْلُغُ تِسْعَةَ أَضْعافِ جَناحِ ديكٍ روميٍّ سَمينٍ. وكانَتْ تَشْرَبُ بِكَأْسٍ ذَهَبِيَّةٍ سَعَتُها أَكْثَرُ مِنْ بِرْميلٍ. أَمّا سَكاكينُها فَكانَتِ الواحِدَةُ مِنْها تُوازي ضِعْفَيْ مِنْجَلٍ، كَما كانَتِ المَلاعِقُ والشُّوَكُ الَّتي تَسْتَعْمِلُها ضَخْمَةً جِدًّا.

وَضَعَ المَلِكُ يَوْمًا مَقْعَدي وطاوِلَتي قُرْبَ المَمْلَحَةِ الّتي أمامَهُ عَلى المائِدَةِ، ذَلِكَ أَنَّهُ كانَ يَنْوي التَّحَدُّثَ مَعي بِشَأْنِ نِظامِ الحُكْمِ والعاداتِ والأَخْلاقِ في إِنْجِلْتِرا.

أَخْبَرْتُهُ بِالتَّفْصيلِ عَنِ العائِلَةِ المالِكَةِ عِنْدَنا وطَبَقَةِ النُّبَلاءِ، وذَكَرْتُ نَجاحَ جَيْشِنا وبَحْرِيَّتِنا في كُلِّ أَرْجاءِ الأَرْضِ.



اِسْتَمَعَ إِلَيَّ بِأَدَبٍ لِبَعْضِ الوَقْتِ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلى وَزيرِهِ الأَوَّلِ وقالَ ضاحِكًا: «إِنَّهُ لَمِنَ الغَريبِ حَقًّا أَنْ يَكونَ لِهؤُلاءِ الأَقْزامِ الصَّعاليكِ طَبَقاتٌ اجْتِماعِيَّةٌ وأَلْقابُ شَرَفٍ يَزْهونَ بِها. ولا شَكَّ في أَنَّهُمْ يَعيشونَ في مُدُنٍ تَحْوي مُؤَسَّساتٍ تِجارِيَّةً ومَنازِلَ، وأَنَّهُمْ يُحِبّونَ ويَتَقاتَلونَ ويَخْتَلِفونَ ويَغُشّونَ ويَخْدَعونَ...»

كَتَمْتُ غَيْظي، بِصُعوبَةٍ، لَدى سَماعي تِلْكَ الإِهاناتِ عَنْ بِلادي العَزيزَةِ مَوْطِنِ الشَّرَفِ والكَرامَةِ ومَوْئِلِ الفَخْرِ والعِزِّ.

كانَتْ حَياتي اليَوْمِيَّةُ في القَصْرِ تَمُرُّ بِهَناءٍ، ولَمْ يَكُنْ يُنَغِّصُها سِوى قَزَمِ المَلِكَةِ، وهُوَ أَقْصَرُ رَعايا المَمْلَكَةِ، إِذْ لا يَتَجاوَزُ طولُهُ تِسْعَةَ أَمْتارٍ.

كانَ هذا القَزَمُ، كُلَّما رَآني زَها بِطولِهِ، وأَخَذَ يَتَبَخْتَرُ أَمامي، هُوَ يَهْزَأُ بي. وفي إِحْدى المَرّاتِ رَدَدْتُ عَلى عِباراتِ الازْدِراءِ بِعِباراتٍ أَقْسى مِنْها، فَما كانَ مِنْهُ إِلّا أَنْ هَجَمَ عَلَيَّ وأَمْسَكَني مِنْ وَسَطي. ثُمَّ رَفَعَني عالِيًا ورَماني في طاسٍ فِضِّيٍّ ضَخْمٍ مَليءٍ بِالقِشْدَةِ. وكانَ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ أَموتَ غَرَقًا لَوْ لَمْ أَكُنْ أُجيدُ السِّباحَةَ.

ومِنْ حُسْنِ حَظّي أَنَّ مُرَبِّيَتي الصَّغيرَةَ غلامْدالكْلِتْش كانَتْ عَلى مَقْرُبَةٍ مِنّا، فَأَنْقَذَتْني بَعْدَ أَنِ ابْتَلَعْتُ أَكْثَرَ مِنْ لِتْرٍ مِنَ القِشْدَةِ. وقَدْ جُلِدَ القَزَمُ لِفَعْلَتِهِ تِلْكَ وأُجْبِرَ عَلى شُرْبِ طاسِ القِشْدَةِ كامِلًا.

كانَتِ المَلِكَةُ تَسْخَرُ مِنّي وتَتَّهِمُني بِالجُبْنِ لِاهْتِمامي الشَّديدِ بِأَمْرِ الذُّباباتِ الضَّخْمَةِ الّتي كانَتْ تُزْعِجُني، وبِخاصَّةٍ في الصَّيْفِ. وبِما أَنَّ حَجْمَ الواحِدَةِ مِنْها كَحَجْمِ الغُرابِ، فَقَدْ كُنْتُ أُضْطَرُّ لِلدِّفاعِ عَنْ نَفْسي عِنْدَما تَطِنُّ حَوْلي أَوْ تَقِفُ عَلى وَجْهي. وأَكْثَرُ ما كانَ يُسَلّي المَلِكَةَ ويُؤْنِسُها، هِيَ

وأَفْرادَ حاشِيَتِها، هُوَ بَراعَتي الفائِقَةُ في سَحْبِ السَّيْفِ وشَقِّ الذُّبابَةِ نِصْفَيْنِ وهِيَ تَطيرُ حَوْلي.

أَمّا إِزْعاجُ الزَّنابيرِ لي فَقَدْ كانَ أَكْبَرَ. كانَتْ تَدْخُلُ غُرْفَتي جَماعاتٍ كُلَّما كُنْتُ آكُلُ الكَعْكَ والحَلْوى. وقَدْ أَرْعَبَتْني ضَخامَتُها فكَأَنَّها حِجالٌ تَطيرُ. لَقَدْ خِلْتُ أَنَّ لَسْعَتَها سَتكونُ كَطَعْنَةِ خِنْجِرٍ قاتِلٍ، فَقَتَلْتُ بِسَيْفي عَدَدًا كَبيرًا مِنْها. ثُمَّ أَخَذْتُ أُقْفِلُ نافِذَةَ غُرْفَتي لِمَنْعِها مِنَ الدُّخولِ. وقَدْ دَفَعَني الفُضولُ إلى جَمْعِ بَعْضِ إِبَرِها الَّتي تَخِزُّ بِها، وكانَ طولُ الواحِدَةِ مِنْها يَفوقُ خَمْسَةَ سنتمِتْراتٍ. ولَدى عَوْدَتي إلى إنجِلترا، فيما بَعْدُ، قَدَّمْتُ ثَلاثًا مِنْها لِمُتْحَفِ العُلومِ في لَنْدن.

اِعْتادَتْ مُرَبِّيَتي الصَّغيرَةُ أَنْ تَأْخُذَني في جَوْلاتٍ لِمُشاهَدَةِ مَعالِمِ البِلادِ مِنْ مَنازِلَ وحَدائِقَ وسُفُنٍ... وقَدْ خُصِّصَتْ لَنا عَرَبَةٌ مِنَ الإِسْطَبْلاتِ المَلَكِيَّةِ، بِحَجْمِ قَصْرِ وستْمِنِسْتر في لَنْدن.

كانَتِ المَلِكَةُ حَريصَةً عَلى راحَتي في تِلْكَ الرِّحْلاتِ، فَأَمَرَتْ بِصُنْعِ عُلْبَةٍ أُخْرى لي مُخَصَّصَةٍ لِلسَّفَرِ. وكانَتْ هذِهِ أَصْغَرَ مِنَ الحُجْرَةِ الأُخْرى، إِذْ تَبْلُغُ مِساحَتُها حَوالَي ثَمانِيَةَ عَشَرَ مِتْرًا مُرَبَّعًا، وارْتِفاعُها حَوالَي ثَلاثَةِ أَمْتارٍ. وهكَذا كانَ بِاسْتِطاعَةِ غلامْدالكْلِتْش حَمْلُها وهِيَ راكِبَةٌ عَلى ظَهْرِ الجَوادِ. كانَ في داخِلِ هذِهِ الغُرْفَةِ، سَريرٌ لِلسَّفَرِ، وأُرْجوحَةٌ شَبَكِيَّةٌ مُعَلَّقَةٌ في السَّقْفِ. وكانَتِ الطّاوِلَةُ مُثْبَتَةً إلى الأَرْضِ وبِقُرْبِها كُرْسِيّانِ. وكُنْتُ أَسْتَطيعُ أَنْ أَرى، مِنْ خِلالِ نَوافِذِها الثَّلاثِ، البُيوتَ والمَتاجِرَ والأَراضِيَ الرِّيفِيَّةَ، وأَنا في غايَةِ الرّاحَةِ والأَمانِ.

حَمَلَتْني غلامْدالكْلِتْش يَوْمًا، في عُلْبَةِ السَّفَرِ، وأَخَذَتْني لِلتَّنَزُّهِ في الحَدائِقِ المَلَكِيَّةِ. وقَدْ أَخْرَجَتْني مِنَ العُلْبَةِ ووَضَعَتْني على الأَرْضِ لأَتَمَشّى.





وحدَثَ أَنَّ غَريمي اللَّدودَ، قَزَمَ المَلِكَةِ، تَبِعَنا. وقَدْ لَفَتَّ نَظَرَهُ بِخُبْثٍ إلى وُجودِ بَعْضِ أَشْجارِ التُّفّاحِ القَزَمَةِ.

أَثارَهُ هذا المُزاحُ الّذي يُعَرِّضُ بِطُولِهِ، فَأَخَذَ يَهُزُّ إِحْدى تِلْكَ الأَشْجارِ بِعُنْفٍ، وأَنا تَحْتَها. فَوَقَعَتْ عَشَراتُ التُّفاحاتِ حَوْلي، وكُلٌّ مِنْها بِحَجْمِ البَرْميلِ. وفيما انْحَنَيْتُ لأَتَّقِيَ إِحْداها أَصابَتْني أُخْرى على ظَهْري، فَوَقَعْتُ أَرْضًا وقَدْ كادَتْ أَنْفاسي تَنْقَطِعُ.

لَمْ تَكُنْ إِصابَتي كَبيرَةً، لِحُسْنِ الحَظِّ. لِذَلِكَ رَجَوْتُ المَلِكَةَ مَنْحَهُ العَفْوَ لأَنَّني كُنْتُ السَّبَبَ في إِثارَتِهِ.

وكُنْتُ، مَرَّةً أُخْرى، أَسيرُ في الحَديقَةِ، عِنْدَما فُوجِئْتُ بِنُزولِ وابِلٍ مِنَ البَرَدِ. كانَتْ حَبّاتُ البَرَدِ المُتَساقِطَةُ تَنْهَمِرُ عَلَيَّ وكَأَنَّني أُصابُ بِمِئاتِ كُراتِ التِّنِسِ. فَزَحَفْتُ على الأَرْضِ واخْتَبَأْتُ تَحْتَ أَوْراقِ السَّعْتَرِ البَرِّيِّ. ومَعَ كُلِّ ذلِكَ، أَصابَتْني الجِراحُ والرُّضوضُ في كُلِّ أَنْحاءِ جِسْمي، مِمّا اسْتَلْزَمَ بَقائي



فِي الفِراشِ مُدَّةَ عَشَرَةِ أَيّامٍ. وقَدْ ذُهِلْتُ عِنْدَما قُمْتُ بِقِياساتٍ وحِساباتٍ أَوْصَلَتْني إلى نَتيجَةٍ مُفادُها أَنَّ حَبَّةَ البَرَدِ في بروبْدِنغْناغ أَكْبَرُ مِنْ حَبَّةِ البَرَدِ في إِنْجِلْترا بِأَلْفٍ وَثَمانِمِائَةِ مَرَّةٍ.

وكَثيرًا ما تَعَرَّضْتُ لِمِثْلِ هذِهِ المَخاطِرِ وأَنا وَحْدي في الحَديقَةِ. وقَدْ حَدَثَ مَرَّةً أَنَّ صَقْرًا كانَ يُحَوِّمُ فَوْقَ الحَديقَةِ، فَرَآني وانْقَضَّ عَلَيَّ مُحاوِلًا حَمْلي بِمَخالِبِهِ. دافَعْتُ عَنْ نَفْسي بِضَراوَةٍ وأَبْعَدْتُ الطّائِرَ بِضَرَباتِ سَيْفي، وهَرَبْتُ مُخْتَبِئًا تَحْتَ شَجَرَةِ تُفّاحٍ. وفي مَرَّةٍ أُخْرى، كادَ عَظْمُ ساقي يَنْكَسِرُ عِنْدَما تَعَثَّرْتُ بِصَدَفَةِ حَلَزونَةٍ.

وهكَذا كانَتْ كُلُّ هذِهِ الأَحْداثِ المُؤْلِمَةِ تُذَكِّرُني كَمْ كُنْتُ صَغيرًا تافِهًا أَمامَ تِلْكَ المَخْلوقاتِ الضَّخْمَةِ.

أَمّا أَخْطَرُ ما تَعَرَّضْتُ لَهُ في بروبْدِنغْناغ، فَقَدْ كانَ عَلى يَدِ قِرْدٍ يَمْلِكُهُ



أَحَدُ الكَتَبَةِ في القَصْرِ:

كُنْتُ يَوْمًا في غُرْفَتي، آخُذُ قِسْطًا مِنَ الرّاحَةِ، والنّافِذَةُ مَفْتوحَةٌ. فَسَمِعْتُ أَصْواتَ قَرْقَعَةٍ حَوْلَ غُرْفَتي. ولَمّا نَظَرْتُ لأَسْتَطْلِعَ الأَمْرَ، وَجَدْتُ القِرْدَ يَنْظُرُ إِلَيَّ بِاسْتِغْرابٍ مِنْ خارِجِ النّافِذَةِ.

سارَعْتُ إلى الاخْتِباءِ تَحْتَ سَريري، ولكِنَّ القِرْدَ المُزْعِجَ أَدْخَلَ يَدَهُ ووَصَلَ إِلَيَّ، كَما تَفْعَلُ القِطَّةُ مَعَ فَأْرَةٍ. لَمْ أَسْتَطِعِ الهَرَبَ مِنْهُ، فَالْتَقَطَني بِلُطْفٍ وحَمَلَني إلى صَدْرِهِ.

تَنَبَّهَتْ غلامْداَلكْلِتْش ورَفيقاتُها إلى الأَمْرِ وهُرِعْنَ لِطَلَبِ النَّجْدَةِ. وإذْ سَمِعَ القِرْدُ الجَلَبَةَ، هَرَبَ بي وتَسَلَّقَ إلى السَّطْحِ. وهُنا طُلِبَ إحْضارُ السَّلالِمِ.

أُحْضِرَتِ السَّلالِمُ بِسُرْعَةٍ، ووُضِعَتْ في أَماكِنِها، وحاوَلَ عَدَدٌ مِنْ خَدَمِ القَصْرِ الوُصولَ إلَيَّ. فَما كانَ مِنَ القِرْدِ إلّا أَنْ خافَ وهَرَبَ بَعْدَ أَنْ تَرَكَني مُعَلَّقًا عَلى قِرْميدَةٍ عِنْدَ أَعْلى التَّقاطُعِ بَيْنَ جانِبَيِ السَّطْحِ المُنْحَدِرَيْنِ.

بَقيتُ فَتْرَةً مُعَلَّقًا هُناكَ، عَلى ارْتِفاعِ مِائَتَيْنِ وخَمْسَةٍ وسَبْعينَ مِتْرًا، وأَنا أَخْشى السُّقوطَ في أَيِّ لَحْظَةٍ إذا ما هَبَّتِ الرّيحُ أَوْ إذا أُصِبْتُ بِدُوارٍ. ثُمَّ تَسَلَّقَ فَتًى شُجاعٌ مِنْ خَدَمِ مُرَبِّيَتي، ووَصَلَ إلَيَّ. اِلْتَقَطَني مُتَأَنِّيًا. ووَضَعَني في جَيْبِ سِرْوالِهِ، ونَزَلَ بي، فَتَنَفَّسْتُ الصُّعَداءَ.

تَنَدَّرَ المَلِكُ بِهذِهِ الحادِثَةِ، وسَأَلَني عَنْ كَيْفِيَّةِ تَصَرُّفي فيما لَوْ حَدَثَ ذلِكَ في بِلادي. فَأَجَبْتُهُ بِأَنَّ القِرَدَةَ– في عالَمِنا– صَغيرَةُ الحَجْمِ ولَطيفَةٌ، ويُمْكِنُني إخافَتُها وإبْعادُها بِسُهولَةٍ. ولكِنَّ القُرودَ في بروبْدِنغْناغ هِيَ بِحَجْمِ الفِيَلَةِ بِالنِّسْبَةِ إلَيْنا. فَاسْتَغْرَبَ المَلِكُ وحاشِيَتُهُ هذا الكَلامَ، واسْتَغْرَقوا جَميعًا في الضَّحِكِ.

كانَ المَلِكُ رَجُلًا حَكيمًا، وكانَ –مِنْ حينٍ لِآخَرَ– يَأْمُرُ بِإِحْضاري إلى مَكْتَبِهِ، حَيْثُ كُنْتُ أَجْلِسُ عَلى كُرْسِيٍّ خاصٍّ بي مَوْضوعٍ عَلى طاوِلَتِهِ.

اِعْتادَ أَنْ يُدْنِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ الطّاوِلَةِ ويَجْلِسَ إزائي عَلى مَسافَةِ مِتْرٍ أَوْ مِتْرَيْنِ، ثُمَّ يَبْدَأَ بِطَرْحِ الأَسْئِلَةِ عَلَيَّ. كانَ يُريدُ أَنْ يَعْرِفَ شَيْئًا عَنْ عاداتِنا

وطَريقَةِ الحُكْمِ في إِنْجِلْترا، عَسى أَنْ يَجِدَ في ذَلِكَ ما يَسْتَحِقُّ تَبنّيهِ في برووبْدِنغْناغ.

كانَ يُرافِقُهُ، في مِثْلِ هذِهِ الجَلَساتِ، خَمْسَةُ أَشْخاصٍ مِنْ مُعاوِنيهِ، يُصْغونَ إِلَيَّ وأَنا أَشْرَحُ بِالتَّفْصيلِ تِلْكَ المَسائِلَ. أَمّا جلالَتُهُ فَكانَ، خِلالَ ذَلِكَ، يُدَوِّنُ المُلاحَظاتِ ويَطْرَحُ الأَسْئِلَةَ، ويَعودُ أَحْيانًا إِلى مُناقَشَةِ مَوْضوعٍ سابِقٍ. وقَدْ لاحَظْتُ، مَعَ تَطَوُّرِ الجَلَساتِ، أَنَّ إِجاباتي عَنْ أَسْئِلَةِ المَلِكِ لَمْ تُقْنِعْهُ.

وقَدْ أَظْهَرَ المَلِكُ شَكَّهُ في نَزاهَةِ النِّظامِ السِّياسِيِّ عِنْدَنا في إِنْجِلْترا، واعْتَبَرَ أَنَّهُ يَشوبُهُ النِّفاقُ والأَنانِيَّةُ ويَسودُهُ الجَشَعُ والرَّشْوَةُ. وقَدْ وَصَلَ شَكُّهُ



إلى السُّلْطَةِ القَضائِيَّةِ الّتي رَأى أَنَّها لا يُمْكِنُ إلّا أَنْ تَتَحَكَّمَ بِها المُيولُ الدّينِيَّةُ والسِّياسِيَّةُ وتَأْثيراتُ النُّفوذِ والمالِ.

وأَعْرَبَ جَلالَتُهُ عَنِ اسْتِغْرابِهِ لِدُخولِ بِلادي في حُروبٍ طَويلَةٍ ومُكَلِّفَةٍ، بَرًّا وبَحْرًا، عَلى مَرِّ العُصورِ. واسْتَنْتَجَ أَنَّ أَسْبابَ هٰذِهِ الحُروبِ تَعودُ إلى أَنَّنا شَعْبٌ مُشاكِسٌ مُحِبٌّ لِلحَرْبِ، أَوْ إلى وُجودِ دُوَلٍ مُجاوِرَةٍ سَيِّئَةِ النَّوايا. ثُمَّ ساقَ احْتِمالًا آخَرَ هُوَ أَنَّ دُخولَ البِلادِ في هٰذِهِ المُغامَراتِ الباهِظَةِ الثَّمَنِ كانَ بِإِرادَةِ القادَةِ العَسْكَرِيِّينَ المُتَهَوِّرينَ السّاعينَ إلى زِيادَةِ شُهْرَتِهِمْ وثَرْوَتِهِمْ.

عادَ المَلِكُ، فيما بَعْدُ، إلى المَواضيعِ المَطْروحَةِ في الجَلَساتِ السّابِقَةِ مُلَخِّصًا مُجْمَلَ المُناقَشاتِ. ثُمَّ أَخَذَني بِيَدِهِ، ورَبَّتَ عَلَيَّ، وخاطَبَني



بِالحَديثِ التّالي الّذي لا يُمْكِنُ أَنْ أَنْساهُ ما حَيِيتُ:

«يا صَديقي الصَّغيرَ، لَقَدْ أَدَّيْتَ واجِبَكَ نَحْوَ بِلادِكَ، وحاوَلْتَ أَنْ تُعْطِيَ عَنْها صورَةً مُشَرِّفَةً. لكِنَّ مُناقَشاتِنا أَظْهَرَتْ لي أَنَّ الصِّفاتِ الّتي تُؤَهِّلُ المُشَرِّعينَ عِنْدَكُمْ لِمَراكِزِهِمْ هِيَ الجَهْلُ والخُمولُ والرَّذيلَةُ، وأَنَّ الّذينَ يُفَسِّرونَ القَوانينَ ويُطَبِّقونَها هُمُ الّذينَ تَتَوَقَّفُ مَصالِحُهُمُ الشَّخْصِيَّةُ عَلى تَحْريفِها وتَشْويهِها. وبِكَلِمَةٍ وَجيزَةٍ أَقولُ لَكَ إِنَّ الأَلْقابَ والمَناصِبَ الرَّفيعَةَ تُمْنَحُ لِلبَعيدينَ عَنِ النَّزاهَةِ والاسْتِقامَةِ. إِنَّكُمْ سُلالَةٌ بَغيضَةٌ مِنْ أَخْبَثِ الحَشَراتِ الّتي تَدِبُّ عَلى وَجْهِ الأَرْضِ».

كانَتِ العُلومُ والمَعارِفُ السّائِدَةُ في بروبْدِنغْناغ تَتَرَكَّزُ حَوْلَ كُلِّ ما هُوَ تَطْبيقِيٌّ ونَفْعِيٌّ، وتَبْعُدُ عَنِ المُثُلِ العُلْيا والأَفْكارِ المُجَرَّدَةِ. لِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ في البِلادِ مَكْتَباتٌ عامَّةٌ. وقَدْ سَمَحَ لي المَلِكُ بِارْتِيادِ مَكْتَبَتِهِ الخاصَّةِ والاطِّلاعِ عَلى ما أَشاءُ مِنَ الكُتُبِ المَوْجودَةِ فيها، وعَدَدُها لا يَتَجاوَزُ الأَلْفَ، وهِيَ مَوْضوعَةٌ في قاعَةٍ يَبْلُغُ طولُها أَكْثَرَ مِنْ ثَلاثِمِائَةٍ وخَمْسينَ مِتْرًا.

ولِكَيْ أَتَمَكَّنَ مِنْ قِراءَةِ بَعْضِ الكُتُبِ، صَنَعَ لي نَجّارُ المَلِكِ سُلَّمًا نَقّالًا، عَرْضُهُ خَمْسَةَ عَشَرَ مِتْرًا وارْتِفاعُهُ ثَمانِيَةُ أَمْتارٍ. كانَ الكِتابُ الّذي أَرْغَبُ قِراءَتَهُ يُوضَعُ مَفْتوحًا عَلى الأَرْضِ ويُسْنَدُ إِلى الجِدارِ. ثُمَّ أَتَسَلَّقُ إِلى الدَّرَجَةِ العُلْيا وأَبْدَأُ بِالقِراءَةِ مِنَ اليَمينِ إِلى اليَسارِ، وأَنا أَنْتَقِلُ عَلى الدَّرَجَةِ.

ولَدى انْتِهاءِ السَّطْرِ، كُنْتُ أَنْزِلُ إِلى الدَّرَجَةِ الّتي تَحْتَها، وأُعيدُ الكَرَّةَ، وهكذا حَتّى الوُصولِ إِلى الأَسْفَلِ. وكُنْتُ أَتَلَقّى بَعْضَ المُساعَدَةِ في قَلْبِ الصَّفَحاتِ الّتي كانَتْ بِالنِّسْبَةِ لي – قاسِيَةً كَالكَرْتونِ السَّميكِ بِطولِ سِتَّةِ أَمْتارٍ.

طَوالَ تِلْكَ المُدَّةِ، لَمْ أَفْقِدْ يَوْمًا الرَّغْبَةَ في نَيْلِ حُرِّيَّتي، ولكِنّي كُنْتُ أُدْرِكُ صُعوبَةَ تَحْقيقِ ذَلِكَ.





أَمّا المَلِكُ فكانَ راغِبًا حَقًّا في بَقائي في مَمْلَكَتِهِ. وقَدْ أَصْدَرَ أَوامِرَهُ الصّارِمَةَ بِمُراقَبَةِ البَحْرِ وإِحْضارِ أَيِّ سَفينَةٍ قَدْ تَقْتَرِبُ مِنْ بِلادِهِ. وكانَ يَأْمُلُ أَنْ يَجِدَ عَلى مَتْنِها أُنْثى مِنْ جِنْسي لَعَلَّنا نُرْزَقُ بِذُرِّيَّةٍ مِنَ البَشَرِ أَمْثالِنا.

بِالرَّغْمِ مِنْ حُسْنِ مُعامَلَةِ المَلِكِ والمَلِكَةِ لي ومَحَبَّةِ أَهْلِ البَلاطِ جَميعًا، لَمْ أَتَقَبَّلْ تِلْكَ الفِكْرَةَ بَتاتًا. وكُنْتُ أُفَضِّلُ المَوْتَ عَلى الابْتِعادِ عَنْ بِلادي وأَبْناءِ جِنْسي وعائِلَتي والعَيْشِ كَالعُصْفورِ المَسْجونِ في قَفَصٍ.

كُنْتُ أَتَمَنّى، مِنْ كُلِّ قَلْبي، أَنْ أَكونَ بَيْنَ أُناسٍ حَقيقِيِّينَ أَسْتَطيعُ أَنْ أُخاطِبَهُمْ عَلى قَدَمِ المُساواةِ، وأَنْ أَسيرَ في الشَّوارِعِ وبَيْنَ الحُقولِ غَيْرَ خائِفٍ مِنْ أَنْ أُسْحَقَ تَحْتَ الأَقْدامِ كَضِفْدَعٍ صَغيرَةٍ أَوْ حَشَرَةٍ تافِهَةٍ.

وجاءَ خَلاصي أَسْرَعَ مِمّا تَوَقَّعْتُ. كانَ قَدْ مَضى عَلى وُجودي في تِلْكَ

المَمْلَكَةِ أَكْثَرُ مِنْ عامَيْنِ عِنْدَما رافَقْتُ المَلِكَ والمَلِكَةَ في رِحْلَةٍ إلى السَّواحِلِ الجَنوبِيَّةِ لِلمَمْلَكَةِ. وكَالعادَةِ قامَتْ مُرَبِّيَتي العَزيزَةُ غلامْدالكْلِتْش بِحَمْلي في العُلْبَةِ الخاصَّةِ بِالسَّفَرِ الَّتي أُدْخِلَتْ عَلَيْها بِضْعُ تَعْديلاتٍ بِناءً عَلى طَلَبي، مِنْها زِيادَةُ أُرْجوحَةٍ في داخِلِها وإقامَةُ فُتْحَةٍ في سَقْفِها.

قُرْبَ نِهايَةِ الرِّحْلَةِ، تَوَقَّفْنا ونَزَلْنا في أَحَدِ القُصورِ المَلَكِيَّةِ، ويَقَعُ عَلى مَسافَةِ تِسْعَةٍ وعِشْرينَ كيلومِتْرًا مِنَ الشّاطِئِ. كُنْتُ مُتَشَوِّقًا جِدًّا لِرُؤْيَةِ البَحْرِ عَنْ كَثَبٍ، فَأَقْنَعْتُ غلامْدالكْلِتْش بِالسَّماحِ لِوَصيفِها بِأَخْذي إلى الشّاطِئِ.

عِنْدَما وَصَلَ بي الغُلامُ إلى الشّاطِئِ، وَضَعَ عُلْبَتي عَلى الصُّخورِ، فَأَخَذْتُ أَنْظُرُ مِنْ نافِذَتي وأَتَأَمَّلُ البَحْرَ الَّذي كُنْتُ أَرى فيهِ الأَمَلَ الوَحيدَ لِخَلاصي إذا كانَ ذٰلِكَ سَيَتَحَقَّقُ يَوْمًا. اِعْتَقَدَ الغُلامُ أَنَّني بِأَمانٍ في العُلْبَةِ، فَابْتَعَدَ وأَخَذَ يَتَسَلَّقُ الصُّخورَ ويُخَوِّضُ في بِرَكِ الماءِ الَّتي بَيْنَها.

سَمِعْتُ فَجْأَةً صَوْتَ رَفْرَفَةٍ قَوِيًّا صادِرًا عَنْ جَناحَيْنِ كَبيرَيْنِ. وأَحْسَسْتُ أَنَّ طائِرًا ضَخْمًا قَدْ حَمَلَ العُلْبَةَ وعَلا بِها في الجَوِّ وهِيَ مُعَلَّقَةٌ بِمِنْقارِهِ مِنَ الحَلْقَةِ المَعْدِنِيَّةِ المُثْبَتَةِ في أَعْلاها.

تَمَلَّكَني الذُّعْرُ إذْ خَشيتُ أَنْ يُفْلِتَ الطّائِرُ العُلْبَةَ كَما تَفْعَلُ الطُّيورُ البَحْرِيَّةُ عِنْدَما تَلْتَقِطُ الأَصْدافَ وتُسْقِطُها مِنَ الجَوِّ لِتَتَحَطَّمَ عَلى الصُّخورِ فَتَسْتَطيعَ أَنْ تَأْكُلَ ما بِداخِلِها.

وسُرْعانَ ما سَمِعْتُ أَصْواتَ طُيورٍ أُخْرى تَزْعَقُ، وأَحْسَسْتُ أَنَّ بَيْتي الصَّغيرَ - يَهْوي نُزولًا - خِلْتُ أَنَّ النِّهايَةَ قَدْ دَنَتْ، ولٰكِنْ بَعْدَ حَوالَي نِصْفِ دَقيقَةٍ ارْتَطَمَتِ العُلْبَةُ بِصَفْحَةِ الماءِ مُحْدِثَةً صَوْتًا مُدَوِّيًا ورَذاذًا مُتَطايِرًا. ولِحُسْنِ الحَظِّ، لَمْ تَتَحَطَّمِ العُلْبَةُ، بَلْ أَخَذَتْ تَتَهادى طافِيَةً عَلى وَجْهِ الماءِ. وقَدْ ساعَدَ إحْكامُ صُنْعِها عَلى مَنْعِ الماءِ مِنَ التَّسَرُّبِ إلى الدّاخِلِ، كَما كانَ لِلصَّفائِحِ الحَديدِيَّةِ في أَسْفَلِ العُلْبَةِ الفَضْلُ في حِفْظِ تَوازُنِها.

بَعْدَ مُرورِ بِضعِ ساعاتٍ، سَمِعْتُ أَصْواتًا حَوْلي، وقَدَّرْتُ أَنَّ حِبالًا تُرْبَطُ عَلى حَلْقَةِ العُلْبَةِ. وأَحْسَسْتُ بِصَدْمَةٍ قَوِيَّةٍ خِلتُ مَعَها أَنَّ العُلْبَةَ ارْتَطَمَتْ بِشَيْءٍ صُلْبٍ. ثُمَّ تَبَيَّنَ أَنَّ هذا الشَّيْءَ الصُّلْبَ لَمْ يَكُنْ إِلّا بَدَنَ سَفينَةٍ. وقَدْ غَمَرَني فَرَحٌ لا يوصَفُ عِنْدَما سَمِعْتُ أَصْواتَ أُناسٍ يَتَكَلَّمونَ الإِنجليزِيَّةَ. ولَمْ أَجِدْ نَفْسي إِلّا وأَنا أُخْرِجُ مِنْديلي مِنْ جَيْبي وأَرْبِطُهُ عَلى عَصًا، ثُمَّ أُخْرِجُ طَرَفَ تِلْكَ العَصا مِنَ الفُتْحَةِ الّتي في أَعْلى السَّقْفِ وأُلَوِّحُ بِها.

بَعْدَ ذلِكَ سَمِعْتُ حَرَكَةَ آلَةٍ رافِعَةٍ وهِيَ تَرْفَعُ عُلْبَتي إِلى مَتْنِ السَّفينَةِ. وعَمِلَ نَجّارٌ عَلى إِزاحَةِ اللَّوْحِ الّذي يُغَطّي الفُتْحَةَ، وبَعْدَ لَحَظاتٍ كُنْتُ في الخارِجِ.

تَحَلَّقَ البَحّارَةُ حَوْلي مُتَعَجِّبينَ، وأَمْطَروني بِأَلْفِ سُؤالٍ وسُؤالٍ. وكُنْتُ أَنا أَيْضًا مُنْذَهِلًا لِرُؤْيَةِ هذا العَدَدِ مِنَ الأَقْزامِ، فَهُمْ بَدَوْا لي كَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ كُنْتُ مُعْتادًا عَلى مَرْأى أولئِكَ العَمالِقَةِ الجَبابِرَةِ الّذين غادَرْتُهُمْ مُؤَخَّرًا.

كانَ قُبْطانُ السَّفينَةِ رَجُلًا مُحْتَرَمًا مِنْ مُقاطَعَةِ شروبْشير، يُدْعَى توماس وِلْكوكْس، وقَدْ أَخَذَني إِلى قَمْرَتِهِ (حُجْرَةِ قِيادَةِ السَّفينَةِ) وتَرَكَني هُناكَ لأَرْتاحَ. دَعاني، بَعْدَ أَنْ ذَهَبَ عَنّي العَناءُ والتَّعَبُ، إِلى تَناوُلِ الغَداءِ مَعَهُ وإِخْبارِهِ بِمُغامَرَتي.

أَصْغَى إِلى حِكايَتي بِكُلِّ أَدَبٍ واهْتِمامٍ، ولكِنَّهُ ظَنَّ أَنَّ بي مَسًّا مِنَ الجُنونِ. فَأَحْضَرْتُ بِضْعَةَ أَشْياءَ مِنْ خِزانَتي الّتي كانتْ لا تَزالُ عَلى مَتْنِ السَّفينَةِ.

أَرَيْتُهُ أَوَّلاً المِشْطَ الّذي صَنَعْتُهُ مِنَ الشَّعَراتِ المُتَساقِطَةِ مِنْ رَأْسِ المَلِكِ. ثُمَّ عَرَضْتُ عَلَيْهِ قُلامَةً مِنْ ظُفْرِ جَلالَتِهِ، وهِيَ بِحَجْمِ خُرْطومِ الفيلِ ومَتانَتِهِ.

ثُمَّ قامَ القُبْطانُ بِتَفَحُّصِ مَجْموعَةٍ مِنَ الإبَرِ والدَّبابيسِ تَتَراوَحُ أَطْوالُها بَيْنَ ثَلاثينَ سنتيمِتْرًا وخَمْسَةٍ وأَرْبَعينَ سنتيمِتْرًا، وإبَرِ الزَّنابيرِ الّتي تُشْبِهُ المَساميرَ الطَّويلَةَ. كَما رَأى سِرْوالًا جِلْدِيًّا كانَ قَدْ صَنَعَهُ لي خَيّاطُ القَصْرِ مِنْ جِلْدِ فَأْرٍ.

وقَدْ أَهْدَيْتُ لَهُ- كَتَذْكارٍ- سِنًّا مَخْلوعَةً مِنْ فَمِ خادِمٍ في القَصْرِ. وكانَ طُولُ هٰذِهِ السِّنِّ نَحْوَ ثَلاثينَ سنتيمِتْرًا ومُحيطُها عَشَرَةَ سنتيمِتْراتٍ.

بِالرُّغْمِ مِنِ اسْتِغْرابِ القُبْطانِ لِكُلِّ ما سَمِعَ بِهِ ورَآهُ فَقَدْ صَدَّقَ قِصَّتي، وحَثَّني عَلى تَدْوينِ وَقائِعِ هٰذِهِ الرِّحْلَةِ الغَريبَةِ لَدى عَوْدَتي إلى إنْجِلْتِرا.

بَعْدَ فِراري بِحوالَي تِسْعَةِ أَشْهُرٍ وَطِئْتُ أَرْضَ الوَطَنِ مَرَّةً أُخْرى، وذَلِكَ في اليَوْمِ الثّالِثِ مِنْ يونيو عامَ ١٧٠٦.

أَخْبَرْتُ القُبْطانَ بِأَنَّني سَأَعودُ إلَيْهِ ومَعي أُجْرَةُ حَمْلي في سَفينَتِهِ،





ولكِنَّ الرَّجُلَ الكَريمَ رَفَضَ أَنْ يَتَقاضَى أَيَّ مَبْلَغٍ، بَلْ أَعْطاني نُقودًا لأَسْتَأْجِرَ جَوادًا لِلذَّهابِ إلى رِدْريف.

لاحَظْتُ، وأَنا في الطَّريقِ، صِغَرَ أَحْجامِ البُيوتِ والنّاسِ والماشِيَةِ، وكُنْتُ أَصْرُخُ بِالمارَّةِ لِيُخْلوا أَمامي الطَّريقَ حَتّى لا يَدوسَهُمْ جَوادي، وكَأَنَّني عِمْلاقٌ آتٍ مِنْ بروبْدِنغْناغ.

وَصَلْتُ أَخيرًا إلى بَيْتي، ورَكَضَتْ زَوْجَتي وابْنَتي إلَيَّ، فَعانَقْتُهُما عِناقًا حارًّا. ولكِنّي اعْتَبَرْتُ أَنَّهُما كَالأَقْزامِ بِالنِّسْبَةِ لِلأَحْجامِ الّتي اعْتادَتْ عَيْنايَ عَلى رُؤْيَتِها مُدَّةً طَويلَةً قَبْلَ ذلِكَ.

بَعْدَ فَتْرَةٍ وَجيزَةٍ، أَصْبَحْتُ قادِرًا عَلى رُؤْيَةِ الأَشْياءِ كَما هِيَ وتَقْديرِ الأَحْجامِ والقِياساتِ حَقَّ قَدْرِها، فَغَمَرَني سُرورٌ بالِغٌ لِلاجْتِماعِ بِأَفْرادِ عائِلَتي وأَصْدِقائي. وبِناءً عَلى إلْحاحِهِمْ جَميعًا، عاهَدْتُهُمْ عَلى عَدَمِ العَوْدَةِ إلى رُكوبِ البَحْرِ وتَعْريضِ حَياتي لِلخَطَرِ.

جوناثان سويفْت



وُلِدَ جوناثان سويفْت في دبلِن بإيرلندا سَنَةَ ١٦٦٧. كانَ والِدُهُ قَدْ تُوُفِّيَ قَبْلَ وِلادَتِهِ، فَتَعَهَّدَهُ أَحَدُ أَعْمامِهِ، وحَرَصَ عَلى تَعْليمِهِ في أَحْسَنِ المَدارِسِ إلى أَنْ تَخَرَّجَ في كُلِّيَّةِ «ترينِتي» في دبلِن عامَ ١٦٨٦.

اِتَّسَمَتِ الأَوْضاعُ السِّياسِيَّةُ في إيرلندا آنذاكَ بِصِراعاتٍ حادَّةٍ، فَتَوَجَّهَ سويفْت إلى إِنْجِلْترا حَيْثُ عَمِلَ سِكْرِتيرًا خاصًّا لِأَحَدِ رِجالِ السِّياسَةِ المُتَقاعِدينَ. وكانَ لِجَوِّ عَمَلِهِ هذا أَثَرٌ عَلَيْهِ إِذِ انْغَمَسَ في الشُّؤونِ السِّياسِيَّةِ والدِّينِيَّةِ. ثُمَّ بَدَأَ بِالكِتابَةِ، وسَرْعانَ ما أَصْبَحَ واحِدًا مِنْ أَهَمِّ كُتّابِ عَصْرِهِ، وعُرِفَ بِآرائِهِ العَقْلانِيَّةِ وقَلَمِهِ السّاخِرِ. نَشَرَ عامَ ١٧٠٤ كِتابَ «حِكايَة بَرْميل» (A Tale of a Tub) والَّذي يَسْخَرُ فيه مِنَ الانْحِرافاتِ الفِكْرِيَّةِ والعَقائِدِيَّةِ، وكِتابَ «مَعْرَكَة الكُتُب» (The Battle if the Books) الَّذي يَرْسُمُ فيهِ صِراعًا مَلْحَمِيَّ الطّابَعِ بَيْنَ الكُتُبِ القَديمَةِ والكُتُبِ الجَديدَةِ. وكانَ، قَبْلَ هذَيْنِ الكِتابَيْنِ، قَدِ اشْتُهِرَ بِكِتابَةِ مَقالاتٍ ونَشَراتٍ بَليغَةٍ تَدْعَمُ وُجْهَةَ نَظَرِ حِزْبِ الأَحْرارِ. كانَ، في السَّنَواتِ التّالِيَةِ، طَرَفًا في النِّزاعاتِ السِّياسِيَّةِ، وقَدْ أَيَّدَ رِجالَ الدّينِ الإيرلَنْدِيّينَ في مَواقِفِهِم المُعارِضَةِ لِإِنْجِلْترا.

وهذا ما دَعاهُ، عامَ ١٧١٠، إلى الانْتِقالِ إلى صُفوفِ حِزْبِ المُحافِظينَ.

كانَ سويفْت، خِلالَ إقامَتِهِ في إِنْجِلْترا وزِياراتِهِ المُتَكَرِّرَة لِإيرْلندا، يَأْمُلُ في الحُصولِ على مَنْصِبٍ رَفيعٍ في الكَنيسَةِ الأَنجليكانِيَّةِ. وقَدْ عُيِّنَ، في سَنَةِ ١٧١٤، عَميدًا مَسْؤولاً عَنْ كاتِدْرائِيَّةِ «سانْت باتْريك» في دبلِن. وغادَرَ إِنْجِلْترا بَعْدَ فَشَلِهِ في مَيْدانِ السِّياسَةِ إِثْرَ سُقوطِ حِزْبِ المُحافِظينَ، وتَوَجَّه إلى إيرلندا. وسَرْعانَ ما اكْتَسَبَ سويفْت صَداقَةَ العَديدِ مِنْ رِجالِ الدّينِ في إيرلندا، وأَخَذَ يَكْتُبُ مَقالاتٍ في التّاريخِ المُعاصِرِ. ثُمَّ نَذَرَ قَلَمَهُ عَنْ قَضِيَّةِ الشَّعْبِ الإيرلَنْديِّ حَتّى أَصْبَحَ أَحَدَ كِبارِ المُهْتَمّينَ بِالشُّؤونِ الإيرلَنْدِيَّةِ.

أَلَّفَ سويفت عَمَلَهُ الرّائِعَ «رِحْلات جاليڤر» (Gulliver›s Travels) بَيْنَ العامَيْنِ ١٧٢١، ١٧٢٥، وسافَرَ إلى إنْجِلْترا لِلقِيامِ بِتَرتيباتِ نَشْرِ الكِتابِ سَنَةَ ١٧٢٦. وكانَتْ تِلْكَ آخِرَ زِيارَةٍ لَهُ لإِنْجِلْترا إذْ قَضى بَقِيَّةَ عُمْرِهِ بَعْدَ ذلِكَ في إيرلندا. يَتَأَلَّفُ الكِتابُ مِنْ أَرْبَعِ رِحْلاتٍ إلى أراضٍ غَريبَةٍ. وفي هذِهِ الرِّحْلاتِ تَصْويرٌ ساخِرٌ مَريرٌ لِواقِعِ الجِنْسِ البَشَرِيِّ قَدْ يَصِلُ أحيانًا إلى حَدِّ الصَّراحَةِ القاسِيَةِ في تَصْويرِ البَشَرِ وطَبائِعِهِمْ وعاداتِهِمْ ونُظُمِهِمْ إلخ... وبِخاصَّةٍ في الرِّحْلَتَيْنِ الثّالِثَةِ والرّابِعَةِ غَيْرِ المُتَضَمَّنَتَيْنِ في هذِهِ التَّرْجَمَةِ.

وبالإضافَةِ إلى الوَجْهِ الفِكْرِيِّ لِلكِتابِ، فَإِنَّ هذِهِ الرِّحْلاتِ تَنْطَوي عَلى عَناصِرِ المُغامَراتِ والأَخْطارِ والخَوارِقِ، مِمّا يَجْعَلُها مادَّةً مُمْتِعَةً لِلقِراءَةِ، وبِشَكْلٍ خاصٍّ لَدى النّاشِئَةِ.

كانَ سويفْت يُعاني مِنْ مَرَضٍ مُزْمِنٍ تَطَوَّرَ وصارَ مُؤَثِّرًا عَلى قُدُراتِهِ العَقْلِيَّةِ، وبِخاصَّةٍ في السِّتّينِيّاتِ مِنْ عُمْرِهِ، حَتّى إنَّهُ أَصْبَحَ في سَنَةِ ١٧٤٢- غَيْرَ قادِرٍ عَلى القِيامِ بِشُؤونِهِ الخاصَّةِ. وقَدْ تُوُفِّيَ سنَةَ ١٧٤٥، ودُفِنَ في كَنيسَةِ «سانْت باتْريك».



كتب الفراشة - القصص العالميّة

١ - الدُّكتور جيكل ومِستر هايْد
٢ - أوليفَر تويسْت
٣ - نِداء البَراري
٤ - موبي دِك
٥ - البَحّار
٦ - المخْطوف
٧ - شَبَح باسْكِرْفيل
٨ - قِصَّة مَدينَتين
٩ - مونْفليت
١٠ - الشَّباب
١١ - عَوْدة المُواطِن
١٢ - الفُنْدق الكبير
١٣ - حَولَ العالَم في ثمانينَ يَومًا
١٤ - رِحْلَة إلى قَلْب الأرض
١٥ - كُنوز الملِك سُلَيْمان
١٦ - سايْلس مارْنَر
١٧ - شيرْلي
١٨ - رِحلات جاليڤَر
١٩ - بعيدًا عن صَخب النّاس
٢٠ - مُغامَرات هاكلبري فين
٢١ - ديڤيد كوبرڤيلد
٢٢ - بليك هاوُس
٢٣ - بلاك بيُوتي

كتب الفراشة

القِصص العالميّة ١٨. رِحْلات جالِيڤر

«رِحْلات جالِيڤَر»، رائعةُ جوناثان سويفْت، عَمَلٌ أَدَبيّ فَذٌّ يَستهوي الصِّغار والكِبار على مَرِّ العُصور.

يَتَّسِمُ أُسلوب سويفْت بالإِبْداع والخَيال، فَنحن نَقرأ بِشَغَف هَذه المُغامَراتِ الخارِقَةَ والأَحْداثَ المُثيرة ونَحبِسُ أَنفاسَنا أَمام تلك الأَوْصاف الدَّقيقة لِأَراضٍ غَريبة ومَخْلوقاتٍ أَغْرَب.

ثُمَّ نَخرج، بعدَ كُلّ هَذا، بِأَفكار واقِعِيّة ساقَها سويفْت بِسُخرية مَريرة وصَراحة لاذِعة مُنتقِدًا واقِعَ الجِنْس البَشَريّ، وما كان يتخبّط فيه أبناءُ عصره مِن فَسادٍ في مُختلِف جَوانِب حَياتهم.



مَكتبة لبنان ناشِرون



01C196818